

مراقبته وعقابه وكان (حسن عطيه) يقول دائماً مدافعاً عن نفسه لمن

يُسأله:

- متعاطف إيه يا عالم.. هو أنا اللي حيحاكمهم.. إحنا لنا لا يحه
وقانون.. ده مش معقول إحنا هنا سجن احتياطي والأصول نطبق
عليهم الليحه..

(عطيه) اقترب منه وهو في طريقه لحجرة الضابط وهمس في
قفاه محذراً وشامتاً:

- إبقى خلي الليحة تنفعك!

عرف الصول (مصطفى) أن الحديث يجري حول زيارة (سالم)..
فتتأكد أن الحكاية باطلة وندم لأنه تسرع وذهب.. ليبشره.. ماذا سيقول
عليه سالم الآن.. أربعين سنة في السجون قضى نصفها على الأقل مع
هؤلاء الناس ويعرف أكابرهم وزعماءهم وأكل معهم عيش وملح في
سجن (الأجانب) و(الطور) و(أبو زعل) وكان سجاناً على (شهدي) في
(طرة).. وزامل الشاويش (حسن عطيه) في المحاريق وصادق منهم
هناك كتاب ودكاترة وفنانيين وعمال لسانهم بريند واولاد بشوات
يطالبون بإلغاء الباشوية، كانوا بشرًا مختلفين علموا القراءة وساعدوه
على الترقية بسرعة، بعضهم حل له ببساطة لغز حسابات الكسور
والقسمة المركبة.. كانوا في عز التكادير والتعذيب يحلون مشاكله وهو
السجان وهم فاقدو الحرية.. كانوا أكثر منه حرية.. يغنون (سيد
درويش) في عز الكرب وينشدون أنا شيد تخلی جلده يقة شعر، حالمين،
يفكرن دائمًا فيما سيحدث غداً علموا وهو الساخط دائمًا أن يحب
هذا البلد.. وان يعذر الناس.. اقنعواه ان كل من في السجون حتى
القتلة منهم ضحايا للفقر والجهل وانعدام العدالة وان الحياة لا يمكن
ان تكون ظالمة.. البشر هم الذين يظلمون، وان يوماً سيأتي بالتأكيد،
تكون فيه الدنيا أجمل والناس أطيب عندما يتساوون. كانوا مقنعين
وان لم يصدقهم تماماً - كان مؤمناً أن الظلم مكتوب والمكتوب ما منه
هروب والشر لا خلاص منه. لكنه كان يجد عندهم عزاءً كبيراً يخفف
عنه ولم يكذب عليهم أبداً لأنه متتأكد أنهم لا يكذبون.

ماذا سيظن به (سالم) الآن، خجل أن يعود للعنبر ووقف مستنداً
لجدار المكاتب منتظراً (حسن عطية) ليطلب منه معالجة الأمر
والاعتذار عنه..

أحد نبطشية المكاتب اندفع نحو العنبر فاصطدم به. ومنه عرف أن الضابط قرر أن يمر على العنبر، كان الولد من عيون (عبد التواب) يسرع لينبهه لقرار الضابط بالتفتيش المفاجئ.

وعندما دخل إلى حوش المكاتب لمح الضابط يتحدث في التليفون ضاحكاً، بينما وقف (عطية) أمام الباب مبتسمًا يتبع المكالمة. وكان (حسن عطية) واقفاً يراقب الموقف في ارتباك.. وما أن اندفع الضابط من المكتب في اتجاه العنبر حتى ضرب الصول كعبية وشد قامته وصاح كما تقضي الأوامر:

کما نہیں اذ وامر:

بعد أن أطلقة صفارته.

غضب الضابط الذي كان يريد مفاجأة العنبر وصرخ فيه أن يكف
وأن يتلهى على عينه ويشفق شغله ودفعه في صدره في قرف فتراجع
الصوال واستند إلى الحائط بينما اندفع الضابط نحو العنبر غاضباً
لكنه لم يستطع أن يمنع شاويش البوابة عندما لمحه من بعيد أن
يصرخ كالعادة هو الآخر:

٥٠٠ إثبات

تأكد عندما دخل إلى العنبر أن المفاجأة لم تنجح تماماً. كان تأنيبه لشاويش (حسن عطية) ومكالمة رئيس المباحث قد ملأتا نفسه برغبة شريرة في أن يقدم خدمة ما قد تسر صديقه (عاطف الحفني) الذي سيراه غداً أو بعد غد في جنازة قريبة.. كان يود أن يقدم له شيئاً يرضيه ليؤكده ولاءه وحرصه على تنفيذ توجيهاته في معاملة ابن قريته بكل إخلاص وشدة!

وكان سفر المأمور وغياب وكيل السجن فرصته لإثبات انتقامه للمباحث وانه غير هؤلاء الضباط (المايصين).

كانت الزيارة رسميا غير ممنوعة (فالملم) تحت التحقيق، ولم

يصدر بعد قرار باعتقاله ليكون تحت سيطرة المباحث العامة تماماً. ومر عام كامل وهم يشيرون أن الزيارة ممنوعة بأوامر علياً.. والحقيقة أن هذه الأشاعات منعت أهل (سالم) من محاولة الزيارة. و(سالم) أراجه الوضع فلم يسع لتغييره فلم يكن يريد أن يزيد من أعباء أهله. الضابط (ممدوح) كان يتعجب لماذا لا يستصدر (عاطف بك) أمر اعتقال (سالم) ويخلص! إنه لا يفهم حرج موقفه أمام أهل بلده وهو الذي يؤكد للكل حرصه على ألا يتعرض (سالم) لما يتعرض له الشيوعيون في أماكن أخرى، متوقعاً أن يساعده هذا في مهمة حساسة صارت مفتاحاً لتقديمه في سلك المباحث وهي استئصال شأفة الشيوعية من (ميت سلسيل) التي أدرجت ضمن دائرة القرى (الحمراء) منذ منتصف الخمسينات. كان يريد أن يتسلل إلى صفوفهم في القرية ممتنعياً حمار الطيبة والتعاطف الإنساني..

كان الضابط (ممدوح) يتمنى أن يجد عندما يفاجئ العنبر (سالم) وزملاءه معاً في زنزانة واحدة أو يفاجئهم في حالة استرخاء تتيح له فرصة ضبط أي أوراق ممنوعة معهم.. كان يعرف أن الأبواب لم تعد تغلق عليهم طول الوقت كما تقضي التعليمات المشددة، وأن من الصعب جداً منع اتصالهم ببعض في هذا السجن الاحتياطي الغارق في الفوضى، الذي يزدحم بكل هؤلاء السجانة الخرعين والمرتشين وفي ظل سياسة ذلك المأمور الذي لا يهمه سوى لمعان الأرضيات والجدران. وأفكار ذلك الوكيل (الدمياطي) الذي يرى أن الرياضة وصناعة الأثاث والأحذية والمقشات هي السبيل لإصلاح فساد البشر، كان ساختطاً منذ نقل إلى هذا السجن على سماحهم بتلك المكتبة والمشاركة بفرق للسجن في مباريات دورية في (الثولي) و(البنج بونج) مع مدارس (المنصورة) ونواحيها.. كان يحلم أن يرضي عنه (عاطف) ويساعده على الانتقال إلى المباحث العامة حيث يستطيع أن يظهر مواهبه في تقويم كل هذه الرخاوة التي تتبرج باللائحة والقانون - كظم غيظه.

كل الزنازين هادئه مغلقة والصمت يسود الأدوار جميعها.. وليس هناك مخلوق في الربع الرابع من الدور الثاني حيث مجتمعة

الشيوعيين والإعدام.. الأسجين علىل منهم في تلميع الحديد ومسح البلاط يرمي بباب العنبر بنظره ثعلبيه يقظة.. أسرع الشاويش (عبد التواب) يستقبله في جديه وانضباط شديد:

- تمام يا أفنديم.

- أفتح لي زنازينهم يا فالح.

- مين يا فندم؟..

- مين يا (عبد التواب) ح تستعبط.. الزنازين اللي كانت مفتوحة من دققتين طول النهار يا للا يا أخويا..

لم يتحمل الضابط (ممدوح) أن يخفى غرضه أو يتظاهر بأخفائه فأشار إلى زنزانة (سالم) أولاً.. وأسرع (عبد التواب) محدثاً بخطواته ثم بالفتح أكبر ضجة ممكنه ثم فتح الباب ورزعه على الحائط وصاح في تجهم:

- انتبه يا مسجون..

تلاؤ (سالم) في القيام.. ثم وقف مستنداً إلى الحائط وهو ينظر في عين (ممدوح) مباشرة. لم يكن يحب ذلك الضابط أو حتى يرتاح إليه.. كان وزملاؤه حريصين على تجنب الاحتكاك به أو اعطائه فرصة للاقتراب منهم.. لكنه اليوم يحكم السجن وحده.. تقدم متسللاً في خياله مفضوح ليختفي توجسه إلى داخل الزنزانة مزيحاً (عبد التواب) ودون كلمة جال ببصره في أرجاء الزنزانة ثم بحذائه رفع طرف البرش في صفاقة مستفرزة.. إبتسما لها (سالم) وقال:

- عليكم السلام ورحمة الله ويركاته..

تجاهل الضابط نبرة السخرية وقال في فظاظة.

- ليه ح تضايفني؟.. أقف كوييس.. فتش الأوده يا شاويش (عبد التواب)..

تأكد (سالم) أن (ممدوح) يريد استفزازه ليفسد الزيارة التي لم يكن عرف بعد أنها ألغيت.. انهماك (عبد التواب) في تفتيش روتيني ثم قال:

- تمام يا أفنديم..

قال الضابط مخاطباً شاويشه بسخرية:

- طبعاً تمام.. في الفوضى اللي انتو فيها.. يبقى تمام.. طبعاً.

ثم التفت إلى (سالم) وأمسك طرف كم چاكتة السجن المكوية وشدّها قليلاً.

- يعني لابس اللي ع الحبل.. عندك زيارة والا إيه؟

أجاب (سالم) في هدوء:

- رينا يسهل.. ويسمع منك..

ضحك ضحكة صفراء وهي يغمز له..

- هيئه؟.. رينا؟.. دانت مؤمن أهه..

بلغ (سالم) ريقه وقال:

- رينا يزيدنا ويزيدك إيمان؟

- مالكش دعوة يايماني.. ورد على سؤالي عندك زيارة؟ مين بلغك بيها؟..

- ما اعرفش لكن رينا يسهل..

- يعني حلق ولابس وجاهز كده لله.. عرفت منين ان عندك زيارة؟

- هو أنا عندي زيارة يا فندم؟ رينا يشرك بالخير..

- بأقول لك إيه؟ ما تلفس وتدور عليه، مين اللي قال لك إن ليك زيارة برة..

لم يكن (ممدوح) ذا خبرة ولذلك أفصح عن غرضه بسرعة وعبط مما أعطى (سالم) فرصة لكي يلاعبه.

- حضرتك اللي بتقول آهه.. وشك حلو عليه.. دي ح تبقى أول زيارة ليه على أيديك..

- يعني عارف إن فيه زيارة؟ مين اللي بلغك؟

- يا أفندي انت اللي قلت حالاً.. وانا صدقتك! وطبعاً حضرتك مش ح تكدر

- أنت ح تقول مين اللي بلغك إن لك زيارة والا لأ.. مين خلاقك تلبس وتجهز كده؟

وجدّها (سالم) فرصة ليلعبه بعد أن كشف عن انعدام خبرته في

مثل هذه الأمور:

- حضرتك لو تعرفنا كويـس.. تعرف أن أنا مش ممـكـن أقولـع اللي
قالـليـ. اطمـنـ سـيـادـتـكـ.. مشـحـ أـقـولـ لـحدـ إـنـكـ أـنتـ الليـ قـلـتـ ليـ..
حالـاـ بـلـسانـكـ..

تلجلج الضابط وهم بالرد غاضباً لاحقه (سالم):

- المـهمـ سـيـادـتـكـ انـ الـزـيـارـةـ تـتـمـ عـلـىـ خـيـرـوـحـ تـبـقـىـ جـمـيـلـةـ ماـ اـنـسـهـاشـ
لـحـضـرـتـكـ.

استشاط الضابط غضباً فقد سيطرته على نفسه وهو يقول
منفلاً:

- بعيد عنـ شـنبـكـ مشـحـ تـزـورـ.. طـوـلـ ماـ أـنـاـ فـيـ السـجـنـ دـهـ..

- لكنـ دـهـ حـقـيـ القـانـونـيـ. وـمـشـ منـ حـقـكـ..

- حـقـكـ.. مـالـكـشـ حـقـوقـ عـنـدـنـاـ؟.. أـخـتـكـ كـانـتـ جـايـهـ عـايـزـهـ زـيـارـةـ
خـاصـةـ بـالـفـهـاـوةـ مـنـ غـيرـ تـصـرـيـحـ نـيـابـةـ.. شـوـفـ الـبـجاـحةـ الـلـيـ مـاـ
وـرـدـتـشـ..

- منـ فـضـلـكـ.. أـخـتـيـ مشـ مـوـضـوـعـ حـدـيـثـنـاـ.. مـنـينـ حـ تـعـرـفـ حـكـاـيـةـ
الـتـصـرـيـحـ وـالـكـلـامـ دـهـ..

- آهـاـلـ عـاـمـلـيـنـ لـيـ فـيـهـاـ مـثـقـفـيـنـ وـفـاهـمـيـنـ وـلـاـ أـنـتـوـ فـاهـمـيـنـ أـيـ
حـاجـةـ..

- الـلـاـيـحـةـ بـتـقـولـ مـنـ حـقـيـ الـزـيـارـةـ..

- الـلـاـيـحـهـ مـاـ بـتـقـولـشـ اـسـمـحـ لـهـاـ بـزـيـارـةـ خـاصـةـ بـدـوـنـ اـذـنـ نـيـابـةـ..

- يـبـقـيـ كـانـ حـقـهاـ زـيـارـةـ سـلـكـ وـدـهـ حـقـيـ (الـطـبـيـعـيـ تـحـتـ التـحـقـيقـ)
كـانـ لـازـمـ حـدـ يـقـولـ لـهـاـ.. لـوـ فـيـهـ إـنـسـانـيـةـ..
- إـنـسـانـيـةـ؟..

- وـحـقـ وـقـانـونـ..

- الـحـقـ الـلـيـ مـاـ يـعـرـفـوـشـ صـاحـبـهـ يـبـقـيـ مـاـ يـسـتـاـهـلـوـشـ..

- يـعـنـيـ مـاـفـيـشـ زـيـارـةـ.. مـنـعـتـ الـزـيـارـةـ سـيـادـتـكـ؟

- حـقـيـ بـقـيـ، دـهـ قـانـونـيـ جـداـ.. هـوـ دـهـ الـلـيـ حـقـيـ.

قرر (سالم) ساعتها بعد أن اتضحت الصورة أن يصل الأمر إلى

مداه.. فتجاهل الضابط وقال:

- يا شاويش (عبد التواب) حضرة الضابط قال بنفسه إنه منع أخي من زيارتي بدون وجه حق.. أنا متظلم ومن دلوقي.. أنا مضرب عن الطعام.. دورني لمكتب سيادة المأمور.

ضحك مدحت ساخرا وقد غاية عدم توجيه الكلام إليه فأراد أن يختصر الطريق إلى ما جاء يفعله:

- حلو قوي.. الرفيق مضرب عن الطعام. فورا تحضره مكتب عshan نعمل محضرريا (عبد التواب).. وتحطه في التأديب ما يشوفش الشمس لحد ما نعرضه على حضره المأمور. يوم السبت إنشاء الله. واستدار نافشا ريشه محاولا إخفاء هزيمة وراء ابتسامة تشف حانقة.

• سارت (نوال) في اتجاه مبنى المحكمة في حي المختلط، كما أشار إليها الشاويش سجان (حسن عطيه).. أحسست أن السبت صار ثقيلا، يتخطى في ساقيها. خجلت أن تحمله على رأسها.. لكنها أضطررت لذلك بعد أن غابت عن أنظار المتزاحمين أمام السجن.. صارت الشمس الشتوية أشد قسوة. وسائل عرق غزير على رقبتها.. عزت عليها نفسها. وأحسست بقهر شديد وإحساس فظيع بالوحدة.. هل هذه هي (المنصورة) التي عرفتها صغيرة حيث سكنوا بشارع الأسواق لمدة عام من قبل. وحيث يعيش خالها. لقد عاشت أياماً حلوة في بيته، كانت مدينة أخرى غير هذه المدينة التي تبدو كئيبة قاسية، بعد أن ردم البحر الصغير. وحل محله طريق بور لا خضرة فيه..

كانوا يأتون صغارا هي وأخوها وزوجة خالها وينتهي ليشاهدو عملية خروج المراكب ودخولها عبر الهويس من البحر الصغير إلى فرع (دمياط) وبالعكس..

كانت المراكب تدخل الحوض الكبير الهائل، وعليها مراكبية وبضائع

ومسافرين من جهة النهر، ثم تغلق البوابات بواسطة تروس ضخمة يديرها رجال نصف عرايا.. يردون على كبارهم بأصوات مجده و لكنها قوية.. وبعد غلق البوابات، تفتح طاقات يندفع فيها الماء العالى من (البحر الصغير) حتى يمتلى الحوض وتطفو المراكب.. الأطفال والمتفرجون من الناس الذين تجذبهم أصوات البحارة وغناء المراكبية يهالون عندما يصل مستوى الماء إلى مستوى ماء (البحر الصغير).. تفتح البوابة الأخرى.. وتهيا المراكب للخروج وترتفع أصوات البحاره ونداءات (الريس). وتفرد الأشرعة للاستفادة من ريح الشمال.. وتنغرس أعود خشبية ضخمة وطويلة في حائط الحوض لتدفع المراكب.. بينما تلقي حبال ضخمة يتلقاها بحارة على البر يلفونها حول صدورهم وأجسامهم نصف العارية، ليجذبوا المراكب في إيقاع محسوب مع أصوات وهمومات منفحة وراء كبارهم. يختلط غناء البحارة بصيحات الأطفال المرحة ويتبدل الجميع التحية والمحبة.. ثم تشق المركب طريقها خارج الحوض وسط تهليل المتفرجين والعابرين لنجاح العملية..

وحين يخلو الحوض من المراكب الآتية من الشمال، تدخل المراكب القادمة من الجنوب ثم تغلق البوابات.. ويبدأ تفريغ الماء فتهبط المراكب المتجهة للنهر حتى المستوى المطلوب.. ساعتها تفتح البوابات لتخرج المراكب لعرض النهر. يتوجه بعضها شمالاً إلى (دمياط) أو جنوباً إلى (القاهرة)..

كانت فرجة يأتي لها الأولاد من كل أنحاء (المنصورة) وكانت المنطقة مزهرة ومخضرة ونظيفة.. تمتلى بضحك الأطفال الذين يتبعون المراكب حتى تغيب، وتأخذ معها جزءاً من قلوبهم.. كانت (نوال) تبكي بدمعه عندما تغيب المراكب وراء منحنى النهر.. وكان (سالم) يسخر منها ويضحك عليها ويزفها هو والأولاد والبنات مهرجين ساخرين.. ينشد وهم يردون عليه بينما هي تطاردهم بما تطوله يدها من زلط وطوب:

- يا أم دمعة قريبة يا بسوسة غريبة..

ولم يكن هذا كلاماً سيئاً ولكنها كانت تطاردهم غاضبة حتى شارع (المدير) و(الحوار) و(الطميهي) وهناك الكثيرون يحيطونها بالحنان والألفة.. فمن ستجده الآن يرحم دموعها، وقد صارت المدينة التي أحبتها يوماً ما بهذه القسوة.

ما أن عبرت شريطة السكة الحديد الضيق.. حتى أفرزعتها فرملة سيارة مفاجئة.. لكنها لم تعرها اهتماماً، إذ كانت عيونها متعلقة بأخر الشارع الذي طال بدون داع أكثر من اللازم.. خيل إليها أنها سمعت من يناديها.. صوت حاد ليس غريباً عليها.. يصرخ في دهشة..

- (نوال) ١٦

تأكدت عندما تكرر النداء. التفتت.. فوجدته.. (هو) دون الخلق جميراً يظهر أمامها في هذه اللحظة المشحونة بالقهر والأحساس بالضياع.. لفتحتها موجة من غضب خانق فآثرت تجاهله وشدت قامتها ومضت تخفى معاناتها لكنه أسرع وقطع الطريق عليها وهو يصرخ.

- إيه؟.. ما بتترديش عليه ليه ليه؟..

وقفت متمنرة تحذر من التمادي.. ومالت لتتمر متفادية الاحتكاك به، لكنه مد ذراعيه على طولهما يجبرها على الوقوف.. قالت في صوت مخنوق وهي تحاول أن تبدو رغمما عنه طبيعية..

- خليك في اللي أنت فيه يا ابن (مقبل)..

- إيه اللي جابك (المنصورة) النهاردة؟..

- اللي جابك جابني.. (عزرايل) !..

نظرت في عينه مباشرة وهي تتأهب للقتال.. انكسرت حدة نظرته ولهجته.. قال في محاولة لتسول تعاطفها:

- طب أنا جاي عشان ترتيبات الجنازة.. والنعي وكده.. إنتي؟..

ردت ساخرة..

- ورتبت كل حاجة.. زي عادتك.. شاطر في الترتيبات..

حاول تجاهل ما تعنيه:

- إحنا ما أحناش في كده.. بتعملني إيه هنا لوحدي؟

- لوحدي؟.. أنا كمان ورايا ترتيبات.. رايحة أعمل ترتيبات زيارة..

قال منفلاً ومحتجاً :

- زيارة مين ؟ ..

- مين ؟ .. مش عارف ؟ .. (سالم) .. زيارة (سالم) صاحبك .. والا انت ناسي ان ليه أخ مسجون هنا في (المنصورة) ياه .. والا ما وصلكش خبر .. (ابن الحفنى) ماحكى لكش ؟ !

قاطعها متوجهلا كل الابر التي تفرشها في طريقه :

- إحنا مش قلنا ان الزيارة ممنوعة ؟ ليه بس المقاوحة والمناولة دي ..

- مين اللي قال .. إحنا مين ؟ .. آه .. أصحابك والا قريبك ابن (الحفنى) .. يا راجل اختشوا على دمكم ده بدل ما كان يطلع هو التصريح .. هو (عاطف) مش قريبك .. راس كبيرة في المباحث برضه ..

- المباحث نفسها .. همه اللي قالوا إنها ممنوعة ؟ ..

- شيء الله يا مباحث .. أنا بقى رايحة النيابة وحاجيب تصريح .. خليك انت مع المباحث !

- أيه اللي بتقوليه ده يا نوال ؟ ..

- ما تزعلش قوي كده .. ومن فضلك خليك في اللي انت فيه .. الحكومة كلها حتبقى في الجنازة .. ومش بعيد وزير الداخلية نفسه يكون حاضر .. واجب تتوسط لنا عنده ..

- بقولك إيه ؟ .. أنا مش حسيبك تتبهدلى في حكاية مامنهاش فايدة .. ياللا .. معايا ..

- بصفتك إيه ؟ .. عن إذنك .. والنبي واللي نبى النبي نبى .. لو ما ميلتش عن سكتي لأكون دبه بالصوت ومفرجة عليك خلق الله .. الحق يا صديق الغفلة .. الحق .. صاحبك ؟ .. أتأخرت عليه .. بيزمر لك ..

- يعني مش ناوية ترجعى عن اللي في دماغكم ؟ ..

- دماغنا ؟ .. (سالم) ما علمنيش ارجع عن اللي في دماغنا ما دام صح .. النيابة حتدينى إذن وح أزور .. وانشاء الله الحق الجنازة .. ما تخافش كلنا ح نشارك ..

- يا بنت الحلال .. ربنا عرفوه بالعقل .. النيابة مش ح تكسر كلام المباحث .. المباحث هي الكل في الكل .. يالا نروح .. وبعد ما نخلص من

اللّٰي احنا فيه.. يحلّها الحلال..

- العلال حي حلها النهارده.. حل انت عن طريقي.. وشوف
مصلحتك.. معايا اكل ح يبوظ.. ثم ان مالكش دعوه بيـه.. عن اذنك..
تقدمت للامام في اصرار وتحد اضطرته إلى التنحي عن طريقها..
وقف مغيظا ؟.. لم يستطع ان يخفى ما بداخله فانفجر
- مش ح تزوريـه.. لما تشوـفي حلمـة ودنـك.. أنا باقول لك تعالى معاـيا
وريـحي نفسـك..

ارتجمت غضباً.. ونظرت اليه نظرة عرّته ونزعـت قناعـه. كان يتحدث
لـرجل أمن أرارـي إختفى الـولد الطـيب كما كان أخـوها يقولـ في وـدـ،
سـاخـراـ منه.. أغلـقـ عـينـيهـ غيرـ قادرـ علىـ مـواجـهـتهاـ.. شـدتـ قـامتـهاـ فيـ
صـمتـ وـمضـتـ دونـ أنـ تـنـظـرـ وـراءـهاـ.. وـقدـ غـلىـ الدـمـ فيـ عـروـقـهاـ حـتـىـ
غـامـتـ عـينـاهـاـ لـكـنـهاـ لمـ تـرـدـ أـنـ يـلاـحـظـ قـهـرـتهاـ وـخـيـبةـ أـمـلـهاـ.. فـجـزـتـ
عـلـىـ شـفـتهاـ حـتـىـ كـادـتـ تـدـمـيـهاـ.. وـهـيـ تـحاـولـ كـتـمـانـ صـرـخـةـ دـوـتـ دـاـخـلـهاـ
فيـ حـمـمـةـ مـقـهـورـةـ..

۔ یا ابن الکارا الب..

لم يكن هو.. نفس الشخص.. لا.. هذا شخص آخر.. غير الذي كان يتسبّب وراءها إلى المطبخ بحجّة مساعدتها في إعداد الشاي لهم.. وهو يذوب رقة وسماحة. يحمل عنها الخضار عندما تذهب للتسوق.. بل وسمح لها أحوالها أن تذهب معه لتشاهد فيلماً (لفليني) كي يشرحه لها.. كانت أيامها قد بدأت ترى الدنيا بعينٍ أخرى.. وتجد إجابات لأسئلة قديمة.. فتحت الكتب والروايات التي قرأتها عينها على أسئلة جديدة.. تطير بها إلى آفاق لا نهاية لها.. تملأ قلبها بفرحة ليس لها حدود.. لم تعد وحدتها.. ولا هم وحدهم.. العالم كله يصعد إلى آفاق الأحلام.. ويأخذ كل شيء معنى جديداً.. لم يتم كل هؤلاء المناضلين سدى.. ولم يكن موت الألوف في (الزحف الطويل) عبثاً.. لم تضع حياة (ساكو وفنيتي) عبثاً.. وحتى موت (خميس والبقرى) كان بداية.. دقات قبضة شعب بالدم على أبواب الحرية.. كانت في هذه الفترة تخلق من جديد.. وأحسست أن لحياتها هدف ومعنى في هذه

الأيام بائذات تسال برقة إلى قلبها.. الذي كان عصياً نفوراً..
أمسك يدها في السينما فأنتفضت بشدة ونهرته.. فارتعب.. وظل
يعتذر طول الوقت وفي طريق العودة حتى كاد يبكي، مرعوباً أن تخبر
أخاه.. منظره كان يثير الشفقة ولكنها لم تكن تقصد تعذيبه..
أشفقت عليه.. بل وأضحكها استمراره في الاعتذار كطفل يقتله
الندم.. فمدت يدها لتأكد له غفرانها وأمسكت يده.. في الشارع.. لم
يصدق نفسه.. وأسرع لأخيها يطلبها منه.. وسط تهليل الأصدقاء
ومرحهم وترحيبهم (سالم).. لم يكن راضياً تماماً.. ولكنه لم يستطع
أن يكون ضد مبادئه.. هي حرة.. ولكن.. همس لها حين انفرداً..
بتخوفه.. وبالشك الخافت الذي يلوح غريباً وغير منطقي.. لكنه
موجود.. (فمجدي) أخو (حمدي) و(حمدي) حكايته مع صديقة
عمرها ماتزال ساخنة ضاغطة.. وأبوه.. سجين لو علم ولو نى يوافق..
وليس هو بال قادر على الوقوف في وجهه دفاعاً عن حبه الذي لم يخف
شكه في وجوده.. طلب منها أن تضع ذلك في اعتبارها ولا تتمادي وراء
عواطفها..وها هي الأحداث تكشف أنه كان على حق.. فها هو شخص
آخر.. أصبح شخصاً آخر منذ قبض على (سالم).. ونزل إلى القرية
(ابن الحنفي) يحرك الماء العكر بكل ثقل (أمن الدولة) لتشيط
القرية التي بدأت تثير قلق الكثirين في القاهرة..

أحداث الجمعية وزيارة (أحمد الجمال) رئيس الاتحاد التعاوني العام والتقرير الذي كتبه معلناً فيه تشككه أن بعضقوى الشيوعية تقف وراء هذه الحركة..

- ابن الكااااااااب.. بان على حقيقتك يا ندل.. لكن الحق مش عليك.. أيوه.. الحق ع اللي بتسرقهم السكينة، فيصدقوا إن كل اللي يضحك لهم (صاحب).. وكل اللي يقرأ منشوراتهم (زميل).. الحق مش عليك.. أنا اللي كان مفروض قرایاتي تحمياني.. غمت عيني.

غامت عينها بالدموع فمسحتها بكمها بعد أن وضعت السبت لتريح ذراعها. وهي تتلفت حولها خوفاً أن يشاهد أحد جبل القهر الراسخ على أكتافها..

صلبت عودها.. وحملت السبت ومضت مسرعة حتى وصلت دار المحكمة.. انعشتها النسمة النيلية التي نشطت هابطة من الشارع الصاعد ناحية النهر.. فلامت نفسها لأنها لم تبصق في وجهه.. وان بررت ذلك باشفاقها عليه في يوم موت أبيه.. غلبان.. لسه جسد أبوه دافي.. بس لأ، الصنف ده.. لازم يتتساكي والا يفجروه مالقاشه حد يرده.. طب ما انتي برضه يا (نوال) عطيتنيه في جنابه.. (طيب يا ابن الكلب.. ان ما وريتك انا وانت والزمن طويل).. افاقت على صوت يُشبه صوته توحى نبرته بغطرسة السلطة؟

- رايحة فين يا بت..

ردت على الفور.. وقد اعطتها غضبها المكتوم قوة:

- بت لما قبتك؟.. البت دي بتشتغل عندك والا بتشتغل عندك.

لم تنتبه! لكن الرد جاء تلقائيا.. ولما انتبهت كانت حدتها قد فعلت فعلتها. فقال الصوت في نبرة عدوانيه أقل في محاولة للاعتذار الساخر:

- رايحة فين يا آنسة؟

تأملت وجهه الأسود الكالح الذي يوحى بفقر دم مزمن، لعسكري مقهور. فأشفقت عليه مما يثور داخلها فقالت بهدوء:

- رايحة النيابة؟

- بالسبت؟.. رايحة للنيابة بالسبت؟

وجدها فرصة ليمارس سطوة لا يملك مقوماتها متذرعاً بالسخرية التي أوحى بها السبت المستف..

- لأ السبت مش للنيابة دي زيارة أخيها؟

تمادي مستعيداً ما تبعثر من هيبيته:

- واخوكي يطلع مين؟.. رئيس النيابة؟

- لأ يا أخيها.. أخيها (مسجون سياسي) وجايده آخذ إذن زيارة.. لاحظت أن كلمة مسجون سياسي أريكته. فانتبه لنفسه وتوقف عن التمادي في إلحاده وعدوانيته.. نظر لها وهو يبلغ ريقه.. منسجباً من

منطقة تبدو السباحة فيها خطرة.. وأشار إلى باب في آخر الطرقة..

- عندك النيابة.. على اليمين في آخر الطرقة..

ثم استدار مبتعدا عنها كمن لا يريد أن يراه أحد هم متلبسا

بالحديث إليها..

كانت طرقة وسخة، هواء فراغها مزيج من ريحه تراب وتفضل شاي ودهن بشري وغبار مظالم وآهات قهر عشرات السنين تركت آثار غلبيها على الجدران وعلى البلاط الكالح المخلع.. تلفت خلفها حين أحسست أن عيونا تراقبها.. فكلمة (مسجون سياسي) رنلت في آذان كثيرة مجاورة بعض أصحابها أهتم فضوله بتأملها.. والبعض أفسح لها الطريق محاولاً تفادي الاحتكاك بها..

كادت تتعرّف في بلاطة مخلوعة..

- اسم الله عليك.. خدي بالك يا شبة..

قالتها امرأة ملحمة تجلس مرتابحة على دكة في مدخل دورة مياه تحولت إلى بو فيه.. وراءها ترابيزة قديمة سوداء من الهباب والتفل عليها موقدين جاز لا صوت لهم لم تشاهد (نوال) مثلهما في حياتها.. تصاعد الدخان والبخار أدى المكان، وصنع جوا مختلفا فيه إنسانية.. ولد على النسبة يضحك.. وماء يكركر.. وجه الاست طيب.. شكرتها ومحبت.. تستأنف رحلتها على الأرض الزنخة المبلطة ونتوءاتها.. أرخت ذراعها بالسبت وهي تحس التعب.. فجأة استدارت نحو الاست اللحيمة.. مستنجلة.. الاست من ناحيتها، استقبلتها في ترحاب أمومي غير مفعل كمن توقعت عودتها:

- والنبي تخلي السبت ده جنبك يا حاجة.. على بال..

عجبتها كلمة (حاجة) فابتسمت ضاحكة..

- في الحفظ والصون، انتي رايحة فين ؟

- رايحة اطلع تصريح زيارة..

- موقة يا أختي.. معاكى الدمعة..

- دمعة ؟ لا..

- طب خدي خليها معاك.. اهي.. تحطّيها على الطلب.. ولما ترجعي

- طلب؟.. طلب ايه؟

- هو انت ماكتبتيش الطلب؟ يا عين أمك.. يا واد يا (المغلي) خد اختك لحد (منسي افendi) قول له أمري بتقول لك تكتب لها الطلب.. وتمشيه حالا.. سيب اللي ف ايدك هنا.. بسرعة قبل ما يزوغوا أصل يا اختي النيابة ما بتطوش في المكتب. مط (المغلي) رقبته وهو يميل نحوها حتى أحسست بأنفاسه تلتف رقبتها..

- طلب زيارة؟.. تعالى.. ورايا يا (إكس).

اكمـل ردا على نظرتها المحتجة.. (لانـس..) التفت ناحية السيدة حائرة تطلب العون.. فانفرج الوجه الأليف المدور ذو العيون المكحولة والمؤطر في حرفـة بالـشـال المـلون عن ابتسـامة عـريـضـة مشـجـعة.. فـراـحت معـاه..

مضـى (المـغـلي) أـمـامـهـا يـشق زـحامـ خـلقـ يـدورـونـ حولـ أـنـفـسـهـمـ، يـرـوحـونـ وـيـغـدوـنـ بـعـضـهـمـ فـي توـتـرـ مـسـتـسـلـمـ وـيـعـضـهـمـ فـي هـرجـ مـتوـتـرـ، وـلاـ سـوقـ التـلـاتـ. نـاسـ بـعـمـمـ وـنـاسـ بـطـوـاقـيـ، وـنـاسـ بـبـدـلـ وـآخـرـينـ بـجـلـالـيـبـ لـكـنـ العـيـونـ كـلـهـا زـائـغـةـ قـلـقـةـ وـكـإـنـماـ انـعـكـسـ خـوفـهـاـ عـلـىـ الجـمـيعـ فـرـأـتـهـمـ كـلـهـمـ تـائـهـيـنـ غـرـقـانـيـنـ مـثـلـهـاـ وـاـكـثـرـ..

كان (المـغـلي) يـوسـعـ لـهـاـ كـأـبـوـ الفـصـادـ. وـهـوـ يـطـوـحـ الـخـلـقـ بـذـرـاعـيـهـ الطـوـيلـيـنـ بـشـكـلـ لـافـتـ رـغـمـ قـصـرـ قـامـتـهـ.. وـيـلـتـفـتـ لـهـاـ بـيـنـ الـحـينـ وـالـآخـرـ لـيـشـجـعـهـاـ عـلـىـ الإـقـدـامـ.. وـلـاـ يـنـسـىـ أـنـ يـمـدـ يـدـهـ الـيـسـرىـ إـلـىـ جـبـ الـمـرـيـلـةـ يـشـخـشـ بـالـنـقـودـ كـأـنـهـ جـرسـ حـنـطـورـ لـإـفـسـاحـ الـطـرـيقـ.. وـيـجـرـأـ صـاحـبـ الـحـقـ زـاحـمـ الـوـاقـفـيـنـ أـمـامـ الـعـرـضـحـالـجـيـ وـمـدـ بـوـزـهـ أـمـامـ نـظـارـتـهـ.. هـامـساـ..

- المـلـمـةـ بـتـقـولـ لـكـ.. اـكـتـبـ لـهـاـ طـلـبـ زيـارـةـ..

وـالـتـفـتـ مـهـدـداـ الـذـيـنـ أـزـاحـهـمـ مـبـرـراـ اـقـتـحـامـهـ وـكـأـنـهـ يـعـذرـ:

- أـمـنـ دـوـلـةـ.. مـاـ وـصـيـكـشـ.. وـرـاجـعـ لـكـ حـالـاـ.. بـالـتـقـيلـ.

وـحـتـىـ لـوـ لـمـ يـفـعـلـ مـاـ كـانـ لـأـحـدـهـمـ أـنـ يـحـتـجـ.. فـاـلـوـاـضـحـ أـنـهـ مـنـ

أصحاب البيت. والعرضحالجي نفسه أطاع فورا. جذب ورقة جديدة
بيضاء وأزاح التي كان يكتب فيها.. وشخط في (المגלי) شخطة ودوده..
ما تتأخرش عليه..

- وجَب.. بالتقيل يا (إكس).. (ضحك يشجعها).. (لانس)..
ومضى وتركها حائرة تحس أنها وقعت في بير ليس له قرار.. لكن
(المنسي) أعادها إليه بصوت يشبه خنفرة خروف مزكوم:

- أويه.. اهي.. من الست أم (مغلي)

- آاه.. طلب إيه بقى؟

- زيارة؟

- خاصة ولا عادية؟

لم تجب.. (ردها على شاويش السجن أثار غضبه).. سهل (المنسي)
الأمر عليها..

- يا ستي مadam من النيابة تبقى (خاصة)..

قالت في سرها..

- آمال بتسألني ليه بس؟

قال وهو يبدأ الكتابة..

- طلب زيارة متهم..

- أخويا مش متهم..

- اللاه.. آمال إيه؟.. مأموري؟..

- أخويا مسجون سياسي..

- يا ستي عارفين (أمن دولة).. يبقى متهم برضه.. وأخطر.. دي
اصطلاحات.. زرته قبل كده؟.. وامتنى؟

- لا.. دي أول مرة؟

نظر إليها مستفسرا، لكنه تأكد أنها لا تعرف الألف من كوز الدرة.

فقال محاولا الحصول على المعلومات الضرورية:

- في السجن هو والا لسه في المباحث؟

- في السجن..

- تحقيق والا اعتقال؟..

- إيش عرفني.. هو بقى له سنة هناك..

- طيب.. اسمه ايه؟.. ثلاثي..

- (سالم عبد القادر محمود)..

عاد (المغلي) يشق زحام الواقفين رافعاً صينية الطلبات كالبهلوان:

- التقيل يا منسي أفندي.. حاجة وصاية.. خلص.. ورانا أشغال..

هيه لسه مازارتتش !

- أشغال شاقة يا (كويرك)..

قهقهه (المغلي) للنكتة وكادت الصينية ان تقع.. أو هكذا خيل (نوال)

لكنه بخفة طوحتها فوق رأسها..

- ما تخافش يا جميل.. كله حيبقى تمام يا ذنه تعالى ورينا ح يفأ

سجنه انشاء الله..

ونادي متلفتا..

- (نباهات).. بنت يا (نباهات)..

شقت الزحام فتاة تشبهه تماماً كتوأمها، تحمل صينية بها فوارغ

وعصب رأسها بمنديل أسود وترتدى ثوباً كالحا مبقياً لكن حركتها

تعطيها سيطرة معلمة:

- (نباهات).. المعلمة مش قالت لك سيببي اللي ف ايدك وخلি�كي مع

أمن الدولة.. كنتي فين؟..

- لميت العدة المنظورة، خد لقحها هناك وانت رايح..

- خليكي معها لغاية ما تخلص.. فاكانص.. هاتي.

التقطف صينية العدة ووازن ما فوقها في حنكة واضحة. والتقط

صينية الطلبات وشق طريقة مبتعداً.. بينما تقدمت (نباهات) ووقفت

بجوار (نوال).. وهي تتأملها.. عينها المكحولتان وشفتها لا تكفان عن

المضغ.. والطريقعة باللبانه.. ابتسمت لها (نوال) ابتسامة مستسلمة

شاكرة..

فاجأها (المنسي)..

- معاك ختم؟..

- أنا بامضي..

لمع نظرة حسد واعجاب في عيون (نباهات)، فكفت عن المضغ
وغمرتها بنظرة فيها بعض الدهشة والاحترام:

- يا أخويَا بتعرف تقرأ وتكتب.. دي أمن دولة.. مش أي كلام..
اغتصبت (نوال) ابتسامة وتناولت القلم.. ووَقَعَتْ بِيَدِ مُرْتَعِشَةً..
وبعد أن ألصق (المنسي) الدمعة على طرف الورقة ناولها (نباهات)..
- تروحي معها (صبحي) التخين تسلميه الطلب.. وتوصيه.. الله..
ما تتعدي يا بنت يا هبلة.. وبطلي تقصّيغ.. ياللا.. هوينا.. ما
ترجعيش غير بالموافقة.. تعالى انت.. دور مين؟

مرة أخرى لم تدر (نوال) ماداً تفعل.. ولكن (نباهات) عادت إليها
وأمكّتها من يدها وجذبّتها خارج الزحام.. فاضطررت ان تجاري
خطواتها النطاطة وتركّتها تجّرّها كطفلة وهي متعلقة بحبل نظرة
التشجيع التي تلمع في عيني (نباهات) المكحولتين..

- مدّي يا بنت الناس عشان نلحق قبل ما الدولة تقفل..
لمحت (نوال) بعينيها القلقتين الدامعتين، وهي مسحوبه خلف
(نباهات) الشاويش ذا الشنب المبروم الذي وصلتا إليه في آخر الطرقة
حيث الزحام أقل.. يسد الطريق واضعا ذراعيه في حزامة على الجنبيين
فادركت أن ما وراءه منطقة لا يجوز الاقتراب منها..

أزاحته (نباهات) فانزاح طائعا دون أي مقاومة، ثم زعمت في
الشاويش الآخر الذي كان جالسا فوق كرسي مكسح أمام باب مكتوب
عليه بخط النسخ (نيابة أمن الدولة) يقاوم غفوة طارئة، فانتبه فرعا
على صرختها وانتقض واقفا انتباه..

- وله يا شاويش (مرسي).. (صبحي) أفندي التخين جوه؟
لما تبين الموقف شتمها شتمة قبيحة. وجلس على الكرسي ولم يرد
معاودا إغفائه.. فتقدمت متتجاهلة له وهي تشدق (نوال) الخائفة
وراءها. ودفعت الباب ففتحته في ثقة ودخلت ووراءها تقدمت (نوال)
في رعب حقيقي.. كانت الحجرة ضيقة إلى درجة غريبة يملا فراغها

مكتب صغير خلفه هرم ضخم من اللحم الأبيض تتكور فوقه رأس
لحيمة مستديرة كحبة بطاطس، ترتاح فوق لغد عقري يملأ الفراغ
بين الكتفين..

تنحنحت (نباهات) فأفاق الأفندى من غفوته. وأنشق جفناه
الثقيلان عن ضى خفيف لعينين خضراوين كعيني قط ساعة
الظهيرة..

- الباشا جوه يا (صبوح) أفندي.. بادلّعه !
قالتها مبتسمة (نوال) وهي تلوح بالطلب..

خرج صوت طفل من بين طيات اللحم قائلاً بلا اهتمام..

- البasha روح من بدري..

وأعاد كبس مؤخرته بحركة لوبية، جعلت الكرسي المسكين يزيق.
إلتفت (نباهات) إلى (نوال) التي كادت تبكي.. فشعرت بإشفاقي عليها،
لكنها تجاهلت الأمر لتشجعها وقالت مبتسمة:

- أتأخرنا هسة.. يا خسارة.. ملحوقة..

استغرق (صبحي) أفندي في النوم ونحر نخرة طردتهما خارج
الغرفة..

إلتفت (نباهات) إلى (نوال) تواسيها وتعذر لها.. ولكن (نوال)
التي حاولت الاستناد في يأسها إلى الحائط القريب إنخرطت في بكاء
صريح وهي تحاول إخفاء وجهها بذراعها.. احتضنتها (نباهات) بصدق
مواسية.. وزعمت عبر الطرقة المزدحمة بعلو حسها..

- وله يا (فص)..

ذعرت (نوال) لصرختها.. وأسرعت تمسح دموعها في محاولة
للتماسك، وقد أحست بعشرات العيون تحاصرها.. مشقة.. رفعت
رأسها ومضت إلى جوار (نباهات) التي أخذت تخفف عنها.

ـ ما تعيطيش دا احنا في أول السكة.. بكره من الشمس نستناه في
المكتب وح يمضي التصريح يعني ح يمضي التصريح.. ولا يهمك..
الدولة في جيبنا.. أنا مش فاهمه والله.. وما هو يروح بدري كده سايب
أمن الدولة في حمايتك.. يا نطل..

قالتها وهي تزغد العسكري الذي يسد الطرقه لايزال، ثم زغدت
النائم فقام مفروعاً كأنه ظبط متلبساً.. بينما شق الزحام اليهما ولد
يُقفر كالبرغوث المطارد..

- عايزه إيه يا (نباهات).. أهك باعترافك استعجلتك بتقول لك عملتني
إيه مع أمن الدولة..

في مدخل دورة المياه، البوفية أجلسها (نباهات) إلى جوار أمها التي
احتاطتها مواسيه بذراعها البعض السمين.. تماستكت شيئاً فشيئاً..
وابتسمت لها وهي تمصح دموعها شاكرة. إبتسامة مستسلمة..
أحضر لها (المغلبي) كوب شاي بالنعناع.. بناء على أمر صامت من
أمه التي افتر ثغرهما عن إبتسامة أظهرت تلات سنوات ذهب.. وقالت
مفاخرة مشيرة للولد البرغوث الذي يحشر نفسه في طيات لحمها..

كتمت (نوال) ضحكة كادت تفلت منها.. (نباهات) لاحظتها ولم تفوتها وكذلك الألم.. فقاًلا في نفس واحد:

- أیوه کدھ.. النبی تبسم يا شیخة..
وأكملت الألم في حنو:

- ولا يهمك.. ما فيش أقرب م الأئم - دى (ناهات) أخت (الفص)..

همه لاتنس اولادی ه (القص) ..

- (القص) ٥.. من (القص).. هذه المرة ضحكت (نوال) بصرامة.. وقالت مستغرقة !

قالت المعلمة في شوق واضح وحب صريح:

- (القص).. جوري.. عمده السجن اللي احوي فيه.. هو اللي شايل
لما تيج.. (القص) ده ابني خلفته بعد (نباهات) بتلات سنين كان
محكوم عليه بستين بين ده وبين دي.. شوفتي.. يا دوب فص

يوسفendi اصلی اتوحّمت عليه وانا حامل.. كان في اجازة بين
حبستين.. تعرفي حدف لي اليوستفendi من السلاك ما هو السجن
تلaci فيه كل اللي يشح برة.. الحمد لله.. واهي ماشييه ما تزعليش
وتنقهرى كده.. أنا باقول لك ح تزوريه يعني ح تزوريه.. والنبي لو
حكمت أفتح لك باب السجن بنفسي.. اضحكى.. اضحكى.. يا عين
قلب أمه زمانها متشحتفة عليه.. بس اسمعي على فكرة، السياسي في
السجن بيأخذ حقه تالت ومتلت.. أية.. ماهم ناس متعلمين مش أي
كلام.

انفتح بينهما براح عريض من الود الإنساني.. وكأنه حب من أول
نظرة رأت فيها (نوال).. نموذجاً لامرأة (مصرية حرة) طالما حدثها
أخوها عن قوتها، عندما تحصل على حريتها.. وأحسست فيها أم
(نباهات) بابنة لم تسمح لها الدنيا بها كانت تود أن تكون (نباهات)
مثلها، لكن الدنيا البخلة التي أسكت (القص) سجونها الآن بشكل
 دائم، لم تتح فرصة (لنباهات) أن تتعلم لا هي ولا (فص) اليوستفendi
الذي تفضلت به عليها في لحظة حرية مسرورة من عمر الأحكام..

وهدأت (نوال).. واقتنت بإمكانية الزيارة، رغم زوغان (باشا أمن
الدولة) وشماته (ابن الكلب).. وعندها قررت الرحيل إلى عودة مبكرة
غداً..

أصرت على أن تأخذ أم (نباهات) سبت الطعام بما فيه، فهي لن تعود
به، ولن تركه لأحد يستحقه بعد أخوها سوى صديقة كأم (نباهات)..
وقامت مسرعة لتحقق بميعاد الأسطى (عبدة عواد).. على موعد مبكر
في الغد لتـساعدها (نباهات) في محاولة أخرى لتحدي كل (أولاد
الكلب).

فيا رسمهم أنت لهم أنت لهم دعوه

• لمح (عزرايل) بعينيه قبل أن تفقدا نورهما بثوان عندما دخل
لبيه بض روحيه.. رغم انه كان ينام على بطنه في غيبوبة، لا يسمع
الأصوات القريبة.. لكن وجهه كان مدفوساً لنصفه في المرتبة، ملويا
إلى الناحية التي جاء منها (عزرايل) بجوار الباب المغلق وعيناه
مغلقتين.. ينسدل عليهما جفناه المشلولة الثقيلان.. إلا أنه رأه
واضحاً يبتسم له في طيبة..

كانوا يريطونه أحياناً إلى السرير، حين تنتابه حالة الهياج من وقت
آخر.. لكن هذا لم يكن السبب في أنه عجز عن تحريك أي من
أطرافه.. كان جسده متجمداً لا أثر فيه لحياة..

وعندما تحرك (عزرايل) نحوه خطوة.. وجد نفسه يقفز منقلباً
على ظهره كقرد لسعه بصبوض نار أحمس مرارة العلقم في فمه.. وشم
رائحة كريهة وأحس بشيء بارد على عضوه الميت..
سال عرق غزير بلل الفراش..

خجل من نفسه فقد صار يفعلها على روحه..

لم تلمحه المرأة التي دخلت لتنظفه، إذ تراجع (عزرايل) إلى ركن
معتم في الغرفة.. ورأست المرأة تبدل الفراش.. وعندما بدأت تبدل له
ملابسها.. ظنها (فرج الله) فأخذت يبكي ويعذر لها.. ويؤكد أن كل شيء
سيعود لحاله.. بمجرد أن ينهض من الفراش.. متجاهلاً (عزرايل)
الذى كان يبتسم في سخرية..

على جلدك كانت قشور جافة ميته. أزالتها المرأة التي لم تسمع كلمة
مما قاله.. وأحس برعشة كفها حين لمست ساقيه المثلجتين وأفزعته
أنفاسها اللاهثة وهي ترفع رجله الثقيلة كالحجر لتدخلها في
الكلسون الجاف النظيف..

لتحل أظافره الزرقاء فوق الملاعة النظيفة فذعر لطولها لكنه أخفى
فزعه وأمسك يدها معذراً وهمس لها..

- (فرج الله).. أحلف لك بشرفني.. ستأخذين حقك تالت ومتلت..

مشح اسمح لهم يدبحوك بعد موتي..

لكنها لم تسمعه وظللت منهملة في تسوية الفراش والوسائل تحت

رأسه..

فاجأته رائحة كريهة من الملاعة التي رفعتها ملطخة ببقع صفراء

وينية..

اختفى (عزرايل) تقربياً في شق الباب.. عندما دخلوا عليه.. فصاح

بهم أن يفتحوا الشباك لأنه يختنق.. لكن أحداً لم يعره التفاتاً..

أحرقت جوفه حموضة مرة.. وأصر على أن يفتح عينيه، ولكن

جفونه كانت ماتصقة بقوة رهيبة.. لمح ضوءاً باهتاً لاح من بين

شعيرات جفونه اللزجة.. ضوءاً كابياً ومعتماً غمر الغرفة.. لكنه لم

يستطيع أن يتبعين ملامح الذين التفوا حوله.. ولم يستطع تمييز

غمغماتهم..

مد أحدهم ذراعه تحت ثيابه وطعنها بسكين حاد في بطنه المتورمة..

لكن دماً لم يسل منها.. وأدخل أحدهم شيئاً غليظاً في إسته، فتأوه

وأحس بالبلل بين فخذيه.. كما تبول مرة أخرى أمامهم.. خجل من

نفسه.. وحاول أن يدفعهم بعيداً، حتى لا يشموا رائحته الكريهة، لكن

عضوا من أعضائه لم يطأوه.. حتى ذلك الذي سمي حياته ودفعه

إلى مواقف يخجل أن يذكرها أمام هذا الضيف المتلخص، ذلك العضو

الملعون الذي كانت لمسة أي بروزناعم أو مستدير توقفه كانتوت

المحرات.. والذى يرقد ميتاً في يد من يفحصه الآن منهم.. بل وهو في

كف بنت الكلب التي ليست (فرج الله) تغسله وتفركه وتنظفه وتجففه

دون أن تجري الدماء في عروقه.. بكى بحرقة، حسرة على نفسه وتأكد

أنه خسر كل شيء..

أجهد نفسه كي يفسر ما يتداولونه من كلمات، لكنها ظلت غمغمة

غير مفهومة.. فالتفت ناحية (الزائر) مستنجداً أن يخلاصه مما هو

فيه.. فرأه ينظر إليه بعيون باردة ودون شفقة.. كانه لا ينوي أن

يستجيب. خرجت من أنفه شخرة طويلة كما روحه تحاول التحرر من

جسده الكريه الرائحة..

- الدورة الدموية مضطربة جداً.. والقولون ملتهب.

أعاد طبله بفتح النافذة حتى تتبدد تلك الرائحة الكريهة.. لم يسمعه أحد وان حذر الطبيب المرأة أن تفعل.. حتى لا يصاب بالتهاب رئوي. اقترب منه شبحان يرفعانه ويمسداهه بالوسائل بينما ضغط ثالث على بطنه الورم.. المنفوخ.. حاول أن يخرج ما به من غازات.. ولكنها لم تستجب لضغطاته..

شعر بآلام في أحشائه.. واليد المعروقة تجس وتضغط.. شعر بطعم قيء مرير في حلقة حين خرج صوت من فمه كأنه صوت صادر من إسته.. سمع المرأة تضحك وتكتم ضحكتها، بينما ابتسم (عزرايل) في خبث.. ورأت الطبيب على الورم المكور العالى الذي كان بطنه: فتاق..

- انسداد في الأمعاء الغليظة يجعل الأخراج مستحيلاً.. أزعجه طعم القيء. فواصل الضغط لإخراج الغازات.. لكن مرارة فمه انقلبت إلى ملوحة حادة.. دم دافئ سال على الوسادة من جانب فمه.. صرخ في قرف.. وغمرته رائحة كريهة.. المرأة التي أسرعت تنظف حول فمه أبعدت وجهها.. وغمر كفيها القئ.. فصرخت..

- خرا حدث هرج ومرج كثير. وضحك (عزرايل) شامتاً.. وأسرعت أيديه كثيرة تقلب فيه وتنظف حوله.. لم يعد يشعر بجسده.. وان شعر ببعضه الميت يرتعش..

رأى الجنين الميت الغارق في الدم ينظر إليه من بين فخذيه (فرج الله) المنفرجين غصباً.. نادى عليها.. لكن (عزرايل) صار أكثر وضوحاً وسط الزحام الملتف حول الجسد الميت.. وتلاشت الحركة والأصوات من حوله لم يعد هناك سواه.. (عزرايل) يهدى جثة الطفل المجهض بلا تعاطف ثم يزدوجه جانبها.. ويمد يديه رهيبتين إليه.. لكن أحداً لم يسمع صرخته الفزعية التي لم يخرج منه نفس بعدها.

طلبت زوجته من كل الحاضرين الانصراف.. ت يريد أن تختلي بجسده

قالتها في غل من كتمت لدهور معاناة حرمها ديسـت كرامتها..
واعـشت لـسنوات مـرعـوبـة من افـتضـاح هـذا الـأـمـرـ، الـذـي ارـتكـبـتـ فـي سـبـيلـ
كتـمانـه جـريـمة بـشـعـة.. كـلـ دـهـ يـطـلـعـ مـنـكـ يـاـ (شـيخـ مـقـبـلـ) يـاـ عـارـفـ
رـيناـ؟

مش مهم كل ده.. الورقة فين؟.. لا.. الا دي !!
أخذت تهزه في غضب مكتوم.. ثم ضربته بعنف وقسوة. ومضت في
غضب تفتتش الغرفة والدواب والفراش تحت السرير.. وهي تتعر في
بقاياه.. وفي قطع الأثاث الملوثة والملاءات كالجنونة.. تطاردها سنوات
تحملت فيها إهاناته ومضفت مراراته في صمت.. في صبر.. من أجل
سمعتها.. وكرامة أولادها.. هو وكل ما فعل سيصبح ماضياً بموته..
المهم هو ما هو آت ولن تسمح له بتذنيسه أو الحط منه كما فعل في
حياته.. لم تطق صبرا عندما لم تجد الورقة فصفعته في قسوة.. وهي
تسرع لتفتح الباب وتصرخ في (رتيبة) وفي ابنتيها اللتين حضرتا على
صرختها..

- يا خرابي.. حَ يفْضِلُنَا بَعْدَ مَوْتِهِ.. زَيْ مَا فَضْلَنَا فِي عِيشَتِهِ..
مش لاقيه الـ...
ثم تماست بصعوبة وهي تلوم روحها على ما فلت منها امام
البنتين.. وصاحت..

- ياللا.. يا (رتيبة) قبل ما يتيجي حد.. نضفيه. وابعتي حد يشوف
(حمدى) واندھوالى (الشنقيط) حالاً. نضفي الاودة بلاش فضائح..
وانتو يا بنات.. ما تخلوش حد من الخدامين ولا من قرايبه يهوب
ناحية الاودة.. لحد ما تنضف ونشوف حنعمل ايه؟..

كانت حرقتها حادة وحقيقة وهي تنها وتضرب رأسها في الحيط..
لدرجة أدهش بناتها هذا الحزن الحارق الذي هدّها فجأة على من كانت
شكواها من أفعاله توحى بكراهية لا حد لها. سندتها البنت الكبرى
حين انهارت تبكي مبررة ما تفعله وهي تعرف أنهم لم يصدقواها.
- الفرقة صعبة يا أولاد.. سنين وأنا شاربة ناره ومراره.. لكن برضه

العشرة ما تهونش!

البنت الصغرى التي لم يخل عليها ذلك فعلاً، أسرعت تأمر وتنادي
ليحضر من يعاون (رتيبة) في ترتيب الفراش وتعطير الحجرة.. وغسل
الأرض بالفينيك.. وأسرعت تحضر بعض البخور لتغيير جو الغرفة..
وي بينما كانت الكبرى تسحب أمها خارجة.. دخلت هي تقود عدداً من
النساء والرجال.. لتنظيف الجثة والبلاط والفراش.. وهي تهمس
لنفسها..

- مصيبة موته ح تبقى اكبر من كل مصابيح حياته..
في الوقت الذي كانت أمها تصرخ في اختها الكبيرة وهي تكتم
صوتها بصعوبة..

- اعمل ايه؟.. منك الله يا شيخ.. خلي بينا.. منكم كلكم الله..
عاتبتها نظرة ابنتها.. وكادت تنهرها لاظهار ضعفها الزائد هكذا
امام الشغالة.. فعادت تهمس:

- مهمما كان الفرقة صعبة.. الدار وقعت.. هي واقعة من زمان.. لكن
برضه..

وحين أجلسها على كرسي مريح امام غرفتها في الصالة الكبيرة،
نظرت إليها تطمئنها.. وهي تحاول التماسك وتعدّها بعدم الانهيار..
بينما كانت أصابعها تنفرز في لحمها.. وأسنانها تجز على شفتها
السفلى.. وهي تهز رأسها وجسمها يميناً ويساراً..

(يمكن عطاها لها.. تبقى مصيبة، هو أنكر لما واجهته قبل الغيبوبة.. يجوز قطعها لما حس الموت.. يمكن!.. الصيغة والورق والفلوس زي ما هي حافظها.. ما هو مش معقول؟.. يبقى قطعها). ارتاحت لهذا التفسير.. فتماسكت قليلاً وحين لاحظت أن الكل يراقبها بعيون دامعة.. عادت لها شخصيتها الهاوية المنهارة.. شدت قامتها.. مسحت دمعات قلق كانت قد أفلتت منها.. وبدت كچنرال عرف وقدر حدود هزيمتها، واستوعب أخطاءه.. تماسكت لتمسك بزمام الأمور التي ظلت في قبضتها لسنين طويلة. لكن تحت وطأة وجوده.. وقررت أن تحول حسرتها إلى انتصار.. صرخت..

- حد ينده لي (مجدي).. وروحوا دوروا لي على (حمدي).. و(الشنيط)! أنا قلت هاتوهولي من تحت الأرض واندهولي لي (حمادة المصري) لجل يعلن الخبر من على المدنـة.

مرت (رتيبة) أمامها فزعـت فيها..

- خاصـتوا؟.. يالـلا.. عايزـه البلد ما تناـمش اللـيلة دي..

ردت (رتيبة) مرعـوبـه..

- دا شاف (عزـائيل) يا سـتي..

صرـخت تـكـتمـها..

- آخرـسي يا بـيتـ الكلـب.. والـاحـ ارمـيـكـ فيـ الشـاعـ.. مشـ عـاـيزـهـ تـخـارـيفـ. حـسـاـكـ عـيـنـاـكـ تـقـوـيـ حاجـةـ زـيـ دـيـ.. ويـالـلاـ اـنـتـيـ وهـيـ أـقـلـبـوـ البلدـ.. وـماـ تـنـسـيـشـ (الـشـنـيـطـ)ـ يـجـيـ لـيـ الـوقـتـيـ قـبـلـ النـهـارـ ماـ يـطـلـعـ.

- حـاضـريـاـستـ..

- وـابـعـتـيـ حدـ يـجـيـبـ الشـيـخـةـ (نـعـيمـةـ العـامـيـةـ)ـ تـقـرـأـ قـرـآنـ عـلـىـ رـاسـهـ فيـ الاـوـدـةـ.. يـالـلاـ.. يـمـكـنـ رـيـنـاـ يـرـحـمـهـ زـيـ ماـ رـحـمـهـ الـبلـدـ مـنـهـ.. وـيـرـحـمـنـاـ..

ثمـ هـمـسـتـ لـنـفـسـهـاـ..

(قصـدـيـ يـجـحـمـهـ مـطـرـحـ مـارـاحـ!)..

• أخذت (فرج الله) - بعد أن ألقى بها خارج مملكة الشيخ مقبل -
نصيبها ونصيب عشرة نساء آخريات من الظلام.. لسته.. تحسسته..
احتضنها.. عصرها كتم أنفاسها، مرغها في التراب وضرب بها
الحيطان.. أرعبها وزلزل كيانها.. حايلته.. بكت تحنن قلبها.. أعطتها
نفسها.. عاشرته كعبدة.. لكنه أبدا لم يرحمها.. ما أن يجف الجاز في
المسرجة (الساروخ).. التي لا تملك ثمن ما تبل ريقها به كل يوم. وبعد
أن صارت لا تتحمل مر الشحاثة، مرة بعد مرة. حتى تعود إليه
مستسلمة يختطفها في جوف لا قرار له.. ويتوحد معها في فراغ الدار
كائنا لزجا سميك القوام.. يحيطها بألف ذراع وزيان.. يجعل من
جلدها مداساً لآلاف الأقدام والأيدي والأذرع الشعبانية الهمامية.

الظلم خارج الدار له طعم آخر.. فثم بعض رقة، بسبب النسيم
الساحر الذي يحمل آلاف الأصوات والهمومات والصيحات.. وايضا
بعض انعكاسات ضوء شحيح عابر أو مارق.. أو منداح فوق السطوح أو
في أطراف الحواري الثلاث، التي تلتقي في الساحة الصغيرة أمام عتبة
الدار الواطئة.. كانت تفضل الجلوس على العتبة.. عندما يحل فجأة
بعد غياب الشمس في الليالي التي لا قمر لها.. وحين تنقطع الرجل
بعد العشاء ويصبح الكون كحل.. تسحب بقايا المزيلة الخووص
وتنضفها على العتبة وتربع نصفها خارج الدار والنصف الثاني يحتمي
بضلع الباب الخشبي القديم.

لم تكن تعرف أن عينيها تلمعان في الظلم كعيني هرة متمنرة..
حتى أن بعض المارة كان يسمى باسم الله حين يقترب، إذ يرعبه بريقها
وسط كتلة الظلم المستطيلة الكثيفة التي يصنعها الباب الغائر في
الجدار.. البعض كان يقرأ آية الكرسي بصوت عال، حتى الذين اعتادوا
على ذلك. ويعرفون حقيقة سهلوبى النار أسفل الجدار، كانوا يدارون

ويكتمون رعشة رعبهم، ويكتفون بالتحنحة أو بالقاء التحية في
هميمة مجرورة بالشك
ـ سا الخير يا (فرح) ..

قليلاً ما كانت تهتم بالرد.. وبعد موت أمها.. لم تعد ترد أبداً على أحد.. تحملهم جمیها جريمة قتل طفلها في بطنها وطردتها من بيت الشيخ.

اعتدت على الظلام وتواهمت معه.. كان من قبل أقل وطأه وأكثر حناناً.. كتاب أخيها كان يتحول في المساء إلى دكان عامر بالحياة. وفي الليل طوال الصيف يسمرون فيه الرجال والشباب يحتسون أكواب الشاي الثقيل ويكررون بالجوزة المعسل.. في الشتاء يصبح عامراً بالمرح والمسابقات لكسر لبس القصب أو لسلح شريحة من جلد عيدان (خد الجميل) من الأورمة عند جدر العود حتى الشوشة.. ترتفع صيحاتهم مرحة أو غاضبة ولكن الضوء المنبعث من باب الدكان منظرها حتى آخر الساحة كان يجعل من المكان ونسه حتى الساعات المتأخرة من ليالي الشتاء الطويلة، عامرة بصيحات وخناق العيال والعفاريت وبأشباح أبطال الحواديت طوال الصيف.

كانت أيام - حتى إتقفل الكتاب والدكان.. ورحل أخوها إلى الدنيا يبحث عن فرصة رزق أكبر.. قالوا اشتغل سواق في الحجاز. وقالوا لاف على مرة من (المنصورة). وقيل صار قواداً، لأن تلك المرأة كانت رقاقة ومعلمة. والبعض قال إنه رأه يعمل بواب عمارة في (مصر).. ولم يكن أي من هذا الكلام والرغبي له أهمية.. فهو لم يزرهم مرة. ولم يرسل لهم إشارة، ولم يؤكد أحد أنه رأه بالفعل أو تكلم معه، إنما هي اشاعات وأقاويل.. الأمر الوحيد المؤكد أنه هج.. طهر.. وفلت من أسرمه وأخته والفقرو قال بلاد الله يا خلق الله..

يبدو أن أمها كانت تعرف.. فمنذ استيقظا ذات صباح ولم يناد عليها لتصلب عليه كوزمية يطس به وجهه ليفتح (الكتاب).. لم تذكره لا بالطيب ولا بالردي.. حتى عندما سألتها مرة نهرتها بشده ولم تجب.. وإن لم تستطع تفسير لمعان عينيها الرطب، إلا على وجه واحد.. هو أنه

لم يعد لها في الدنيا إلا هذه التعيسة النحيلة، التي هرستها الدنيا في بيوت الخلق بعد أن عجزت أن تتحمل هرسها في الحقول.

كانت تعود آخر النهار كل يوم ببعض أرغفة، وطبيخ مخلوط من الأرز والبطاطس أو اللوبيا مع المخلل.. وأحياناً بيضة أو عضمة تلتتصق بها نسایر لحم.. أو طاجن به عدس أو فتة باردة.. ليكون زاد اليوم التالي لحين حضورها مع دخول الليل القادم.. أو وصول مدد آخر من فضل خير بعض الجيران من البيوت المستورة مثل بيت (عبد القادر أفندي).. أو بيت (الشهابية).. أو غيرهم.. فكانت تأخذه وتدلّقه في طبق آخر لدיהם وتشطف الفارغ لتعيده مع حامله. دون كلمة.. وكأنه أمر مفروغ منه وواجب مفروض. كانت في البداية تحس بعض الخجل، فتتمت بما يشبه الدعاء بالستر أو الشكر. ولكن ذلك لم يكن ضرورياً.. فتحول مع العادة لنظرية باردة.. تظنها نوعاً من العرفان.

طفلة لعبت مع العيال في الساحة.. وصبية أصبحت مسؤولة عن ملء البرميل القديم المبطن بالزفت بالماء من البحر.. وعندما خرطتها خراط النبات كان أبوها قد مات وأخوها طفش.. وأمها التحقت بالخدمة في بيت الشيخ.. وهوَنَ الخير الذي غمر البيت من جراء ذلك.

- حسرة الموت والهجران.

شابة لفت نظر الشبان بشدة. وخاصة الطلبة وأولاد المستورين الذين ينتظرون موت آبائهم، ليكملاً دورهم في الحياة وجعلتها تحذيرات أمها وتعليقات الشبان والنسوان تنتبه لأحساسها الجديدة.. وتتأمل ما يحدث لجسدها من تغيرات.. عرفت أنها مطعم وأنها حلوة.. حسنهَا الغلب والفقر من التفريط فيما يسأله لعب الرجال الذين ينفردُون بها لسبب أو لآخر.. وعلمها الطمع الذي يحاصرها في العيون النهمة.. والرجفة التي تنتاب الأكف الجريئة التي تتعدى الحدود، أن تفهم قيمة ما لديها وسطوته وأن تحرص عليه وتحمييه.. كانت منذ طفولتها عنيفة شرسة في اللعب والقتال.. فأصبحت حين اكتشفت ما هي عليه من جمال، ماكرة حادة وملاوعة..

الحواديت التي سمعتها جعلتها تضع نفسها باعتزاز في مصاف

أميرات القصور وبنات السلاطين كانت تتأمل وجهها الأسمى الجميل في المرأة المكسورة التي نساحتها الزمن على حائط (القاعة) في أعياد وكانت عندما تكون وحدها.. وتجد الفرصة لغسيل شعرها الخشن السارح، وتضفيه في لذة واهتمام. تدرك ما هي عليه من اختلاف.. أمها لم تدفع بها للحقول رغم الحاجة لذلك.. بل أصرت أن تداريها وتخفيها كما تفعل العائلات المستوره.. فلم تمر مطها في جمع دودة ولا لم قطن.. حبستها في الدار.. في الأول كانت تغلق الدار عليها.. فتصعد إلى السطح وتجلس على حافته طول النهار. تتلقى نظرات الأعجاب وتتمتع بهمومات الغزل.. أقنعتها أمها أنها تملك الثروة الوحيدة التي من بها الله عليهم.. فلتتحافظ عليها.. لأنها هي التي ستضمن لها غداً عريساً يرفعها من بئر الذل، الذي مر مطتهم فيه ليالي الفقر بعد موت الأب وطفشان الأخ الوحيد حافظ القرآن..

تأكدت الأم أن ابنتها قوية وقدرة. تستطيع أن تحمي كنزها حتى وإن عرضته للشمس والهواء.. فلم تعد تغلق الباب عليها.. كانت هي التي تغلاقه من الداخل، لتمنح نفسها فرصة لتأمله أحياناً في المرأة المكسورة المنية.. بكماله عاريأ ثرياً عامراً بالثمار.. وكفل عمل الأم في بيت الشيخ بعض الستر الذي لم تعد معه حاجة لتلقي فضلات خير أحد.. وعرف البيت بعض الخزین من الأرض والفول ووجدت هي وقتاً تتبع في الحوش حياة تضج بأصوات البط والفراخ.. ومرح الأرانب.. وعنطرة ديك شديد الزهو بنفسه.. وشديد الاعتداد بصوته الذي يعلن في كبرياء أنها أصبحت تملك شيئاً.. سينشرها ذات يوم ويدفع بها إلى وش الدنيا.. حتى ولو هجرت إلى أرض أكثر بهجة مثل التي خطفت أخاهما من قبل وحرمت عليه العودة.

الظلم وحده، هو الذي ظل يأسرها في تلابيب سواده كلما جن الليل.. واكتسب كل ركن حولها تحت سطوطه أنفاساً وحركة ومشاعر، تلفها وتضغط في حضنها كنزها في رقة وحشية أو في عنف مشبع بأحساس طاغية غامرة.. صارت أشباحاً مرعبة منذ لم تعد أمها تخدم في بيت الشيخ.. بل وعجزت عن الخدمة أو العمل في أي مكان.

وتكونت في ركن المندرة كتلة من ظلام هي يمضغها الألم ويشلها المرض.. وهمدت حركة الحياة في الحوش. وحمدت أصوات الطيور. ومعها انكتم صوت الديك المتباهي، بالبيع أو بالذبح لضرورة توفير حساء ساخن كدواء لكتلة العجز السوداء المتكونة في ركن المندرة.. تندر بأيام عجاف وعجز قادم.. وخطر داهم. يهدد الكنز المعرض للبوار، والذي يصبح مشتعلًا بالرغبة كلما تكافف حوله الظلام.. خاصة في الليالي التي لم يكن لها قمر..

ثم جاءها المرسال الذي لم تستطع الاعتراض عليه بل رحبت به في أعماقها، رغم إشارة يد أمها العاجزة العجفاء بعدم الموافقة، التي انعكست في نظرتها المشفقة الخائفة التي غيمتها الدموع. ذهبت للخدمة في بيت الشيخ مؤملة أن تعيد بعض الحياة للحوش أو على الأقل تتمكن من تخفيف آهات كومة الألم الحية في ركن المندرة أو تسد رمقها.. وبحثا عن بصيص نور يكسر حدة الظلم التي يكاد يبتلع ويذيب روحها وجسدها الفائز الغني في خرمسيه الرهيب. قبلت. وفي أعماقها حلم غامض أن تجد له دثارا وحماية.

في ذلك اليوم كان البر كله وأهالي (كفر الدوار) يشاهدون منتظرا فريدا لم يحدث في تاريخ (مصر) الحديث إلا مرة على يد العساكر الإنجليز، من حوالي نصف قرن في قرية اسمها (دنشواي).. لكن العساكر - المصريين هذه المرة أجبروا الناس على الفرجة على جسدين مصريين مثلهما فقيرين، يتذليلان من مشنقتين نصبتا على عجل دون محاكمة تقريباً في ساحة مصنع النسيج ليكونا عبرة لمن يعتبر. لكن لا (فرج الله) كانت ترى الجرائد ولا كانت تعرف القراءة أصلا.. فلم يعكر صفو حلمها هذا الأمر ولا غيره..

- غرقت الدنيا عز الضهر في بحر الليل..
إسودت الدنيا في وجه (حمدي) - رغم أن (عبد الناصر) أمم القناة بالأمس - واليوم مؤتمر يجهز له الطلبه في المدرسة وسيخطب فيه والده رئيس هيئة التحرير في المركز كله لساندة الزعيم، وشرح موضوع

القناال لأهل البلد.. إذ يشاء العليم الحكيم أن يشاهد مؤخرة أبيه
الفخمة عارية بيضاء من غير سوء - تعلو وتهبط في توتر لا يليق
بسنه، فوق جسد البت السمراء - الذي يتلوى تحتها وصاحبته تموج
وتصرخ كقطة لائدة..!!

لم يصدق نفسه وكذب عينيه، لكن كل شيء بان واضحا في بطن
المعلم المظلم، عندما نطحت بابه جاموسه جذبتها الأنغام فوقفت
تنفس وهي تتلفت ناحيته في دهشة، تريد ان تحجب بقية المنظر عنه..
لكن طريوش الشيخ، كان معلقا فوق أحد الأوتاد المزروعة في الجدار،
وكانت العباءة السوداء الفاخرة معفرة بالتراب والتبين.. تتدلى فوق
الطاوله كخرقة بالية.. وكان الشال الأبيض الشاهي المشهور والذي
اشتهر بياضه الذي يشرب منه العصفور، ملقى في إهمال فوق الأرض
الموحلة بالقرب منه.. وجد نفسه يلتقطه ويخرج فرعا إلى نهار الزريبة
الفاوض منزلاقا لحضن القيلولة المشتعلة. وهو يستحم بعرق الغضب..
ويبدت الدنيا متهدلة تحت القبض كأنصال ورق الحلفا.. أبوه عاريا؟
ومن الخلف فوق كوم التبن؟ هذا الكيان الفخم الذي تغلق الأبواب
احتراماً عند مروره في حواري القرية. هذا العمدة غير الرسمي
لقرية، والزعيم المتوج الذي يسرع الشبان والشابات لتقبيل يده، لا
يتمنع ولا يمنع.. بل يتحرك في ثقة وعظمته حركات محسوبة في
البيت وفي الشارع والجامع.. هذا الشيخ الطالع من كتب الحواديت
القديمة والسير الشعبية والذي كان يشبهه (بالملاك سرحان).. يقتل
الآخرون ويصرخون حوله وهو يوزع الحكمة عندما تعجز عقولهم عن
استيعاب الأسباب..

ها هو مدلوقي فوق البت وسط العفار والتبين. وهو الذي لم يكن
يستطيع تصوره يمارس فعل الناس العاديين في (محلات الأدب)..
هل خيل إليه؟ لا.. كان الأمر غاية في الوضوح ومفضواها..
كان يحاول استعادة توازنه من المفاجأة.. رفع كفه نحو سرة الشمس
التي كانت تصرخ فوق رأسه تماماً وتلسعه وتحرق جفنيه فينكمش ظله
الذي كان على الدوام شديد الطول في الصباح والمساء..

تعثرت أقدامه.. لكنه ظل يواصل الهرب يلاحق خطواته السريعة المنفعلة.. تراكم فوق كتفيه هموم مجهولة.. ويأخذ بخناقة خوف رهيب غامض.. سمع صوته عندما أخفته أعواد البوص يختنق بكاء القهر ووجد نفسه يلعن أباه والعيشة ومن يريد أن يعيشها بعد اليوم. ويلعن تلك اللبوة (فرح الله) التي خانته، ومع من؟ مع والده..

انزلق وهو يمسح أنفه وعينيه من اللزوجة التي جفت فوق شاريه الحديث من فرج القرية إلى حضن البحر القديم.. حيث لم تكن البيوت السمنتية البليدة تسد الأفق كما هي الآن تلك البيوت التي بناها العساكر العائديون فيما بعد من (اليمن) لتسلب أفق البلد الغربي خضراء البرسيم وبراءة الحلفا..

قفز كالمهر المضروب فوق مؤخرته عند انحناء البحر القليل الماء، مخترقاً أعواد البوص المصبوبة بقذارة التراب الأخضر والتي تمتد على شاطئ المسرف، تفح وتهمس وتطارده ساخرة منه، بأصوات واضحة.. كأصوات الضفادع والقواعد المائية الغامضة أو كزفرات عفاريت القيالة المجهولة..

حين وصل إلى أسفل الجميزة الضخمة، أحسن ببعض الراحة.. فهنا تبدأ حقوله الحミمة حيث ولدت كل حكاياته القديمة من قبل.. وحيث ركضت أحلامه الصغيرة بلا قيود أيام كانت له أحلام.. لم تجدهم بعد وتقاصمت بين سراديبها وفوق جسورها أغلب لذاته السرية المحمومة في براءة.. واشتعلت بين ظلالها الخفية، تحت سيقان الكافور المقشرة وجذوع الصفصاف الخشنة.. وحيث صاحبته في طفولته وصباه.. آلهه فرعونية قديمة وحوريات صلبيبة من العصور الوسطى وجواري من عصر ألف ليلة وعلى حواها أغرته النداهه أن يتبعها مغمض العينين لينزلق كما يفعل الآن بين فخذي الجميزة العجوز المساء يستمع لهمسات حكايات جنياته الأولى البائدة، التي تزخر بها المياه الراكدة في جوف الساقية المهجورة في الغرب من دوار جده الذي حرم من دف عباءته الحانية، وطعم حلواه الغريبة التي كانت تأتيه من الشام ولم

يفارق طعمها شفتيه حتى الآن.. ومن ملمس ذقنه الخشنة على الدوام
التي كانت تدمن خرمشة خدوذه في جنان..

جره الانفعال اللاهث إلى جوار الجدار الشمالي حيث الباب المفتوح
على مصراعيه لدور الغنم الذي تفوح منه تلك الرائحة النفاذه والمليء
فراغه بهسيس زخات رياح طرية هامسه.. وهممه أنفاس خفية لکباش
شهباء وسبوداء تتقاول على الدوام ولا تكف ولا تهدأ أبدا وهي تمارس
طول اليوم المضغ والتناطح والتناكح..

وجد لنفسه المضطربة مكاناً هادئاً.. بجوار الصمت الراكد الرابض
في الظل الظليل الطري، الذي تفرشه شجرة التوت العتيقة.. التي
ربت على كتفيه ساخرة.. وهي تلوح له بخيالات ظلال الثعالب الماكرة
والذئاب الليلية الغبية، التي تركت روائحها في المكان كي تستدل بها
إليه بعد هبوط الليل.. حيث تأتيها الفرائس مستسلمة لمصيرها
المحتم..

غرق في ركنه المفضل، الذي طالما لاذ به ولجا إليه كلما ادله مت
العلاقة بينه وبين العالم، أو بينه وبين البشر فترك جسده ينزلق
محشوا بين النخلة الطويلة الحيانية، ويقايا جذع التوتة الأملس
المقطوع.. الذي كان صديقا صدقاته عقود لا حصر لها من سنوات
الماضي.. منذ ألقى به أحد أجداده القدامى ليصنع منه حاجزا للتبين
والدريس في الصيف، وللبرسيم في الربيع والشتاء.. فصبغته الأيام
والليالي بالطير المصبوج بخضرة البرسيم ولعاب الأغنام والماشية
المتعبة..

أسكره، كما اعتاد أن يحدث له كلما لجا إلى هذا المكان، ذلك
الخليط العجيب من الروائح النفاذه الصاعد من شقوق الأرض السرية
إلى صدره.. مشبعا بمزيج من طعم العشب الجاف، ويقايا الأغنام
المهروس، وعرق باطن البنت الغنامة التي اعتادت أن تأتي إليه، بعد أن
توصل الغذاء لأبيها. كي يسرقا معا ويرضعا حلمات المعيز وهم
يتبادلان القضم والعض والتلامس مع الضروع والأفخاذ الدافئة في
لذة غامضة.. فاجأه كل ذلك.. فانفجر بالبكاء وسالت دموعه المقهورة..

وخرجت من صدره مختربة عينيه آهه ألم وغيظ عميقه حارة ورطبة..
وأحس أنه لن يعود أبدا كما كان.. وان صورة مؤخرة أبيه البيضاء
الفخيمه المتشنجه فوق جسد البت (فرج الله) لن تفارقها أبدا..
وستخايله دائمًا من بين الدموع عارية واضحة ساخرة منه ومن أمه
ومن كل الناس ومن البلد التي تقدس هذا الأب الجبار.

ترك دموعه تغسل أفكاره.. حتى تعب.. وأحس ببعض الراحة وهو
يتذكر ما كانت تفعله بنت الغمام التي طالما عذبه الشوق إليها، وملا
قلبه بالحزن وأرقه غيابها لسنوات. وفي غمرة إحساس طاغ بقلة
الحيلة لمحها من بين غيام دموعه آتيه من بعيد، كطائريقة فز فوق قمة
النباتات الخضراء. فانفجر في ضحكة صبيانية مرحباً بها، أفرعت
زوجا من اليمام، كان يزوم مغمضاً في نشوة وهو يمارس الحب فوق
الجدار تحت ظلال النخلة الرطيبة.. فطار وتفرق فرعاً..

تذكرة هو يتبع زوج اليمام، يوم جاءت (فرج الله) للعمل في البيت
الكبير.. لتنضم لجيش من الرجال والنساء يخدمون في البيت والمخزن
والجنينة.. وحظائر الدواجن والزريبة العامرة.. تحت أمراة أمه التي
كانت تجد في إدارتها لهم شغلاً يعوضها عما تلقيه من إهمال زوج له
كل هذه السطوه والنفوذ والانشغال.. جاءت (فرج الله) لتحمل محل
أمه التي سقطت مريضة مرض لا علاج له أو هكذا قرروا فاستغتوا
عنها..

كانت بين الجميع مميزة بسمارها الصافي، وملامحها الدقيقة
وضفيرتها الخشنة السارحة فوق ضهرها المشدود، وعودها السارح في
كمال، لا يعادله إلا كمال استدارة صدرها الناهد النافر.. ذلك الذي
قدر له أن يقع أسير سحره.. يوم لمح نصفها الأعلى العاري مرسوماً في
الليل، فوق الحائط المواجهة للفرن في صدفة لا تتكرر.. حين عاد فجأة
وهي تستحم مطمئنة أنه لا أحد في الدار الكبيرة كلها.. كلهم ذهبوا
في معية المست كبيرة إلى رحاب (سيدي مجاهد).. كانت ليلة المولد،
وبقيت (فرج الله) في البيت مستمتعة بخلو كل هذا المكان إلا منها..
فسخنت الماء وصعدت إلى غرفة الفرن وجاست في الطشت تستمتع

بماء وصوت الوابور الجاز والصمت اللذين الخالي من الجعير
والشتائم والصيحات الغاضبة والهادرة طول النهار..
عكست اللمة الساروخ المعلقة على الحائط صورة جسدها
الأسطوري على الحائط المقابل.. المواجه لباب الفرن المفتوح.. عاد هو
بالصدفة إلى البيت ليأخذ عدة جنيهات كان قد أخفاها في مخبأ
سرى له في حجرة الفرن. إذ كان قد اتفق مع أصحابه أن يلعبوا الليلة
على رهان حقيقي بعيداً عن الانظار في الجرن الخلفي المحصور بين
دورة مياه الجامع والحقول..

كانت سعيدة بخلو البيت من البشر، وبهذا الصمت الدافئ. فراحت
تغنى بصوتها العذب الرائق أغنية (أسمها) (يا حبيبي تعالى
الحقني.. شوف اللي جرى لي).. التي طالما سمعتها في الرadio
فسحرتها..

لم تسمع خطواته على السلم الخشبي. ولم يصل إلى سمعها صوت
باب السطح وهو ينفتح في هدوء وتلخص.. جذبه الصوت العذب..
شاهد الظل الرائع اللعب فتسمر يحملق مشدوها في تلك الجنية
التي يلعب ظلها على الجدار، مع نغمات صوتها العذب، وسط دخان
اللمبة الساروخ وبخار الماء المتتصاعد وصوت الوابور وصمت البيت إلا
من أنفاسه المتلاحقة.. الجمته متابعته لحركات الجسد المتجسد فوق
الحائط، وتقافز رمان الثديين النافرين فوق العود السارح اللدن
المتماوج.. كانت تمارس مع جسدها نوعاً من الاعجاب والعشق بكفين
حانيتين تدعكان وتعيثان وترفعان وتنميان مع ذراعين مدمجين
يسقيمان وينثنيان في رقصة مثيرة.. مزقه الانفعال.. ففقد حذره
واقترب منتصباً متجسداً في فراغ الباب.

أفاق على صرختها الفزعية، حين استدارت لتواجه وجهه المذهول
المشدوه.. بعد أن دخل ليرى الظل الذي سحره متجسداً في حقيقة
عارية لجنية مغسلة بالشهد والنور.. أسكنت صرختها دموع انفعاله
التي سالت في عفوية على خديه وهو يرتعش شهوة ورغباً.. تحولت
معهما صرختها من صرخة فزع لصرخة إشراق حنون.. حين عصر

قلبها انكساره المدهش المشدوه..

- سيدى (حمدى).. إيه اللي جابك..؟ يا حزني إنت بتعيطه..

تمتم دون أن يعي..

- قدرى.. جيت لقضايا..

بكـت هي الأخرى في حرقـة، كـمن ظـبـطـت مـتـلـبـة بـجـرـيـمـة لم تـرـتكـبـها.. حين جـعـلـتـه في هـذـهـ الـحـالـةـ منـ الـحـزـنـ وـالـعـشـقـ الـتـيـ شـلتـ حـرـكـتـهـ.. وجـدـتـ نـفـسـهاـ تـخـرـجـ منـ الطـشـتـ وـالـماءـ يـسـيلـ منـ جـسـدـهاـ الفـائـرـ النـاضـجـ وـقـدـ التـصـقـتـ بـهـ جـدـاـئـلـ شـعـرـهاـ الخـشـنـ الأـسـوـدـ.. تـقـدـمـتـ منهـ فيـ لـهـفـةـ مـشـفـقـةـ وـأـحـتـضـنـتـهـ وـأـخـذـتـ تـلـعـقـ دـمـوعـهـ بـشـفـتـيـهاـ..

غمـرـهـ أـرـيـجـ جـسـدـهاـ المـضـمـخـ بـالـصـابـونـ النـابـسـيـ الـمـلـكـيـ،ـ والـعـرـقـ الـمـعـطـرـ وـقـدـ لـمـعـتـ عـيـنـاهـاـ لـشـهـوـةـ بـرـيـثـةـ أـضـاءـتـ رـوـحـهـ..ـ أـخـذـتـ تـقـبـلـهـ وـيـادـلـهـ الـقـبـلـاتـ مـحـمـمـومـاـ فـفـرـدـتـ لـهـ بـرـاحـ حـضـنـهـ الرـطـبـ الـلـدـنـ لـيـتوـهـ وـيـنـسـىـ الـمـولـدـ وـالـأـصـحـابـ الـذـينـ أـرـسـلـوـهـ،ـ وـيـغـيـبـ فـيـ حـمـىـ أـنـفـاسـهـ الـحـارـةـ وـجـسـدـهـ الـنـظـيفـ..ـ حـتـىـ قـطـعـ النـفـسـ وـذـابـ فـيـ الـوـجـودـ الـذـيـ لـمـ يـعـدـ سـوـىـ ضـوءـ وـأـصـوـاتـ وـأـلـحـانـ سـحـرـيـةـ شـدـيـدـةـ الصـفـاءـ..ـ لـمـ يـلـفـ نـظـرـهـ يـوـمـهـاـ أوـ لـمـ تـسـعـفـهـ خـبـرـتـهـ لـيـعـرـفـ أـنـهـاـ لـمـ تـكـنـ عـذـراءـ..ـ

فـقـطـ عـنـدـمـاـ أـيـقـظـتـهـ مـنـ حـلـمـهـ صـورـتـهـ فـيـ الزـرـيبـةـ مـطـيـةـ لـأـبـيهـ..ـ مـدـفـوـسـةـ فـيـ التـرـابـ وـالـتـبـنـ وـالـعـلـيقـةـ يـحـيـطـ بـهـماـ رـوـثـ الـبـهـائـمـ وـلـعـابـ الـجـامـوسـةـ الـمـتـطـفـلـةـ..ـ خـنـقـهـ الغـيـظـ وـتـأـكـدـ مـمـنـ سـبـقـهـ إـلـيـهـاـ مـنـ زـمـنـ طـوـيلـ،ـ فـاـنـطـلـقـ يـصـيـحـ طـوـحاـشـالـ أـبـيهـ الشـاهـيـ فـيـ الـهـوـاءـ..ـ لـتـحـمـلـهـ الـرـيحـ نـاحـيـةـ بـنـتـ الـغـنـامـ الـتـيـ لـاحـتـ مـنـ بـعـيدـ وـحـينـ لـمـحتـ الشـالـ اـسـتـدـارـتـ وـاـنـطـلـقـتـ عـبـرـ الـحـقولـ تـطـارـدـهـ..ـ وـتـخـتـفـيـ مـعـهـ يـلاـحـقـهـماـ زـوـجـ الـيـمـامـ الـمـفـرـزـوـعـ فـيـ الـأـفـقـ..ـ

في تلك السنـهـ،ـ الـتـيـ اـفـحـمـتـهـ فـيـهاـ مـؤـخرـةـ أـبـيهـ فـدـهـرـتـ حـلـمـهـ الـبـرـئـ الـنـظـيفـ..ـ لـمـ يـحـصـلـ عـلـىـ شـهـادـةـ الـثـقـافـةـ..ـ بـلـ وـلـمـ يـنـجـحـ بـعـدـ فـيـ أيـ مـدـرـسـةـ..ـ فـقـدـ قـدـرـلـهـ أـنـ يـكـونـ أـبـيهـ وـوـارـثـ عـهـرـهـ.

● من طلعة النهار وبعد أن عقدت معه الاست هانم جلسة المباحثات السرية التي لم يدر بما جرى فيها أحد ولن يستطيع من يقتله حب الاستطلاع أن يخمن و(الشنقيطي) يدور حاملاً طبلة المسحراتي زاعقاً بين الحين والآخر:

- ده كون منظمة سيده - ريك يرتقب لعيده.. وإن أولياء الله عند ريك خالدون ولا هم يحزنون.

خرج مبكراً.. يدق أمام أبواب البيوت وعلى نواديي الحواري ليعلن الأخبار حتى المعروفة لطوب الأرض، في نبرات محملة بالأسى والحزن العميق تليق بالفقد الجليل وإن كانت لا تلائم ترقیص حواجبه للنسوان اللائي يستفزنه ولا تمنع شخرته في شخطته المميزة في العيال الذين يتعلقوه بأذياله مقلدين حركاته.. كان دائماً ما يجد لنفسه ويجدون له في كل مناسبه دوراً متميزاً يلقط به رزقه من أنياب مصائب وأفراح الخلق، أسهلها أن يدور بالطبلة ليثبت ما يستحق الإعلان عنه أو ما لا يستحق حسب الحالة.

بعد الجولة الأولى، كان كل أهل البلد تقريباً قد عرفوا أن (الصوان) سيقام في الجن شمال شريط السكة الحديد شرق المحطة حيث يقع في الركن الغربي الجنوبي منه المبنى السابق لجمعية الأخوان المسلمين الذي استولى عليه العمدة أول ما ركب بعد أن أغلق لسنوات بمعونة البلد و(الشيخ مقبل) في مقابل إنشاء المدرسة الابتدائية ولما أصبحت الجمعية تهمة عقوبها القتل أو السجن جعله مقرأً للتليفون وللعمودية.. معتمداً على أنه شخصياً كان على رأس حملة جمع التبرعات لبناءه بفلوس أهل البلد وأعيانها أيام كان (الحسن البنا) شنة ورنة وجماعته تحظى برعاية السراية وحماية الإنجلizer.. في مواجهة المد الفاتح لشباب الوفد والطلبة الشيوعيين والعمال المتطرفين الذين

لم تسلم القرية من شغبهم وضوضائهم حين قاموا رغم أنفه بردم البركة التي صارت ملعاً لكرة القدم وجربناً واسعاً يتسع في كل الموسماً لدراسة معظم محاصيل البلد من فول وقمح ورز. يومها كان متأكداً أن ذلك جرى بتشجيع من الشيخ (مقبل) الذي فشل في استعادة العمدة بعد عودة الوفد للحكم والذي يرجعه البعض لدور العمدة الحالي المساند والموالي في تصفيية جماعة الأخوان على أيدي (عبد الهادي) عقب اغتيال (النقراشي).. فغطى (الشيخ مقبل) خيبته في استعادة نفوذه لدى الأجهزة المعنية بتحريض الطلبة على الاستيلاء على مندورة العمدة ومقر التليفون بالقوة وتحويلها إلى مقر (نادي اتحاد الطلبة) ولم يصدق أبداً حلفان (الشيخ مقبل) طلاق تلاتة أنه وقف ضد هذا العمل الباطجي الواضح ولذلك انقلبوا عليه وأطاحوا به مجلس إدارة الجمعية وفضحوا أسرار دفاترها..

- باین عليك خرفت يا عمندة.. ازاي قتصور أن ممكناً أواافق على تجاوز الحدود والشغب وتخطي الأصول..
إحنا سوا جمعنا الفلوس وبينينا مقر الجمعية وإحنا سوا اللي قضناه وبينينا المدرسة..
أنت اللي لعبت بديلاً مع حكومة (عبد الهادي) ضدي وحاولت توقيع بيسي وبين رجال الثورة مقبوله منك.. طبعاً مش ح تشترىيه إنما مع العيال الشيوعيين دول.. أعود بالله أنت أكيد خرفت!

أنت ناسي أنا كنت العمدة قبلك واللي يمس هيبيتك يمسني وأن
ده كان تصرف عيال مشاغبين وأرازل..
لكن العمدة لم يغفرها أبداً ولم يصدق أنه لم يحرضهم أو على
الأقل غطرش ولم يقف في وجههم انتقاماً لأنّه مركز السلطة
لواطي البلد - وفشل في استرجاعها رغم أنه حسبها قوي - لكنه لم
يفهم ولم يرجحاً ما جرى، لذلك لم يفعل مثله في هفزة ناجياً بنفسه
من تحت حيطة الوفد الماليـة التي تنـهـارـوـتـلـكـا دون مبرر في أن يتـشـعبـطـ
في جـدارـ الضـبـاطـ الأـحـرارـ المـسـلحـ الذي يـصـعدـ صـفـ وـرـاصـفـ.
ـعـلـىـ كـلـ حـالـ.. آـدـىـ أـنـتـ طـالـعـ مـنـهـاـ عـلـىـ ضـهـرـكـ.. الـمـوـتـ عـلـىـنـاـ حـقـ

- على كل حال.. آدى أنت طالع منها على ضهرك.. الموت علينا حق

صحيح يا شيخ (مقبل) لكن مقر الجمعية حيرجع وحيبقى فيه كلام
تاني وحياة كفناك، مع الطلبة السّوقية.. بعدهما يقول الأمان القومي
كلمته في اتحاد الطلبة بتاعك وكل حي ح يتعلق من عرقوبه..

كان الشيخ (مقبل) قد سئل بشكل مباشر عن مسئوليته عما جرى
يوم انتخابات الاتحاد القومي وكيف طاعت البلد بالطوب تطارد عربة
الجنود التي طلبها العمدة لحفظ النظام وأجبرتها على الخروج من
البلد بتحريض من الطلبة..

سأله بنفسه النجم الطالع من عيلة العمدة (عاطف الحنفي) الذي
 جاء من القاهرة برسالة تهديد واضحة.. أن المباحث العامة وهو
 شخصياً لن يسمح أن تصبح (ميت سلسيل) وكراً للشيوخية الدولية
 بعد حكاية الجمعية.. ومن قبض عليهم ليسوا كل المطلوب قطع
 دابرهم.. فالكشف يضم أسماء أخرى.. ولن يكون في مصلحة شخصية
 مثل الشيخ (مقبل) الذي أهلته مكانته أن يكون رئيس هيئة التحرير
 ثم أميناً للإتحاد القومي في المركز كله أن يدرج اسمه فيه.. خاصة وقد
 كشف (عبد الكريم قاسم) عن وجيهه الحقيقي وسلم (العراق)
 للشيوخيين.. نعم الحكاية أكبر مما تتصور.. وأن كان الموت رحمك من
 البهيمة.. لكن الحساب ما زال مفتوحاً..

(الشنقيطي) الذي كان موضع سر جميع الأطراف لم يكن ليعلن
 على الملأ كل هذا.. رغم أنه يعرف من التفاصيل ما لا يتاح لكثيرين من
 كبار البلد أن يعرفوه.. عيونه صاحبة ومدخنه مفتوح وصوته وطلبه
 وسلاحه كلهم دائمًا جاهزين - لقد لعب دوراً في كل تلك الأحداث، بل
 أن بعضها لم يكن ليتم إلا بهمته ومشاركته ولو بالتهليل والهتاف هو
 دائمًا مفتاح المساندة الشعبية وصوته كان مؤشرًا دائمًا على إتجاه
 الريح وكانت قدرته على اطلاق النغمة التي تأخذ بقلوب الناس مشهود
 بها:

ـ يحيى الوفد ولو فيها رفـ.

ـ لتأيـد المرشـح الـوفـدي بعد غــمة الأخــوانـ.

(قول لي يا بتابع الجنـيه جـنيهـك عمل لك إـيه) ..
سـخرـيةـ بالـعـمـدةـ الـذـيـ وزـعـ عـلـىـ فـقـرـاءـ الـبـلـدـ نـصـفـ وـرـقـةـ جـنـيهـ
لـاـنـتـخـابـ الـمـرـشـحـ الـمـنـافـسـ الـذـيـ سـقـطـ بـجـدـارـةـ وـضـاعـ عـلـيـهـمـ نـصـفـ الـوـرـقـةـ
الـآـخـرـ.

وعندما أشتـدـ المـدـ بـعـدـ عـدـوانـ (٥٦ـ) وـطـلـعـ الطـلـبـةـ فـيـ المـقـدـرـ الجـدـيدـ
وـقـامـتـ الـبـلـدـ وـرـاهـمـ تـقـلـبـ مـجـلـسـ إـدـارـةـ الـجـمـعـيـةـ كـانـ يـصـرـخـ مـعـهـمـ
(حـامـيـهاـ حـرامـيـهاـ) .. هـاتـواـ عـالـيـهاـ وـاطـيـهاـ) .. شـيءـ مـاـ جـعـلـهـ فـيـ الـفـتـرـةـ
الـأـخـيـرـ يـكـتـفـيـ بـأـلـحـانـ الـحـزـنـ فـيـ الـمـيـاتـمـ بـعـدـ أـنـ كـانـ النـاسـ يـسـتـنـفـرـونـ
حـينـ يـسـمـعـونـ دـقـاتـ طـبـلـتـهـ مـنـ بـعـيدـ لـاـ يـعـرـفـوـاـ الـأـخـبـارـ الـتـيـ هـمـ فـيـ
الـغـالـبـ يـعـرـفـوـنـهاـ وـلـكـنـ لـيـتـمـتـعـوـاـ بـإـيقـاعـ بـلـاغـتـهـ الـمـوزـونـ بـمـيزـانـ الـأشـعـارـ
عـلـىـ نـبـضـ قـلـبـ الـغـلـابـةـ ..

فـيـ هـذـهـ الـجـولـةـ الـمـتـعـجلـةـ الـبـالـغـةـ الـكـروـتـةـ لـمـ يـكـنـ فـيـ أـحـلىـ حـالـاتـهـ ..
فـقـدـ كـانـ كـمـاـ لـاـ حـظـ الـكـثـيرـوـنـ مـهـمـومـاـ مـلـهـوـجـاـ مـشـفـوـلاـ بـشـءـ مـاـ لـاـ
يـسـتـطـيـعـونـ تـخـمـيـنـهـ. إـذـ لـمـ يـكـنـ أـحـدـ مـنـهـمـ يـعـرـفـ أـنـ (حـنـيدـقـ) لـاـ يـزالـ
حـبـيـسـ مـخـزـنـ الـحـبـوبـ الـكـائـنـ فـوـقـ رـأـسـ الـفـقـيـدـ نـفـسـهـ .. وـكـانـ عـلـىـ
(الـشـنـقـيـطـ) أـنـ يـعـمـلـ بـسـرـعـةـ عـلـىـ تـحـرـيرـهـ .. دـوـنـ كـشـفـ الـمـسـتـورـ، وـإـلـاـ فـلـنـ
يـكـونـ هـنـاكـ رـيـالـ وـاحـدـ وـلـاـ يـحـزـنـونـ.

فـيـ الـلـحـظـةـ الـمـنـاسـبـةـ أـعـلـنـ (الـشـنـقـيـطـ) نـفـسـهـ نـائـبـاـ لـلـسـتـ هـانـمـ
وـذـهـبـ فـاـسـتـدـعـىـ الـقـائـدـ الـعـامـ لـقـوـاتـ الـمـطـبـخـ (!!) .. كـانـ يـعـرـفـ أـنـهـمـ لـابـدـ
سـيـوـكـلـونـ الـقـيـادـةـ (لـمـحـمـودـ الـفـلـسـطـيـنـيـ) بـسـبـبـ شـهـرـتـهـ كـطـبـاخـ لـلـأـكـابـرـ
وـالـمـنـاسـبـاتـ الـفـدـنـةـ .. وـلـخـبـرـتـهـ الـفـائـقـةـ بـأـصـنـافـ الـطـعـامـ الـتـيـ يـعـرـفـهـاـ
(الـأـكـالـةـ) بـحـقـ، وـأـصـحـابـ الـمـزـاجـ الـعـالـيـ .. بـلـ وـمـاـلـاـ يـعـرـفـوـنـهاـ -ـ أـصـنـافـ
وـأـنـوـاعـ وـأـطـبـاقـ شـامـيـةـ وـتـرـكـيـةـ بـلـ وـفـرـنـسـيـةـ أـيـضاـ .. وـلـذـلـكـ ذـهـبـ إـلـيـهـ
وـدـعـاهـ وـدـخـلـ بـهـ فـيـ الـلـحـظـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـفـكـرـ فـيـ إـسـتـدـعـائـهـ فـشـكـرـتـهـ عـلـىـ
نـبـاهـتـهـ وـكـانـ هـذـاـ بـمـثـابـةـ قـبـولـ أـورـاقـ إـعـتـمـادـهـ نـائـبـاـ وـأـمـراـ مـباـشـرـاـ لـكـيـ
يـجـهـزـ جـيـشـهـ مـنـ مـسـاعـدـاتـ وـمـسـاعـدـيـنـ .. وـحـمـالـيـنـ .. وـجـلـابـيـنـ لـلـوـقـيدـ
وـمـرـمـطـونـاتـ .. وـمـرـاسـيـلـ، بـعـثـ بـعـضـهـمـ لـاستـدـعـاءـ الـبـنـائـيـنـ وـأـهـلـ الـخـبـرـةـ

لكي يأخذوا مواقعهم في المراكز الإستراتيجية من الزرائب والأحواش التي اختارها لتقام بها الكوانين.

وبالطبع كان أول فريق مارس عملاً مباشراً.. تلك المجموعة التي قادها إلى المخزن لتحمل أول دفعات المواد الخام من أرز وبصل وثوم وشعيرية وخلافه.. اختارت ثلاثة صعد على رأسهم بنفسه ليعود بهم يحملون أربعة إشولنة ثقيلة وهو وراءهم يسوقهم بصوت جهوري واثق يأمر رابعهم (حنيدق) أن يذهب بهم إلى حيث عمه (محمد الفلسطيني) في دوار (الشرف) البحري، وليطلب منه أن يحدد لهم حجم ومسار خط الإمداد الرئيسي لما يحتاجه من مواد خام..

وبذلك حرر (حنيدق) وحرر نفسه من مأزقه التاريخي.. ووضع عميله في المكان المناسب بالضبط كي ينضبط من خلالهما طوال هذين اليومين مسار التحكم في منابع الموارد الأساسية لعملية الطبخ الكبير.. بما يسمح دون مخاطر بتسريب الكثير لتوفير رياضات تليق بهذه الأيام الحزينة الجليلة دون أن تهز ثقة الهائم به.. الفقيد نفسه لم يكن يعترض على ذلك لو عرف في آية وجوه للخير ستبذل.. بل انه سيكون سعيداً هائماً في رقادته لأنه لم يكن يكره في حياته أكثر من أولئك الذين همهم على بطونهم. ويس!

(الشنيط) لم ينتزع دوره دون حق ولا يحزنون، بالعكس كانت الحاجة دائماً ما تفرضه عليهم، يلجئون إليه بل ويحايلونه ويرجونه لأنه كان كعادته في مثل هذه الأحوال يسوق الدلال لرفع درجة اعترافهم بما يستحق من احترام وتقدير لمواهبه القيادية لكن الظروف فرضت هذه المرة أن يكون مبادراً لكي يسرع بتحرير رجلة الأول (حنيدق). فبدت مبادرته عملاً يستحق أعجاب وتقدير (الست الهائم) وعلى مدى ما يكتنه لها من ولاء. وأراحها هذا الموقف من هم التفكير في سد حناء الجميع لقطع الألسنة بملء البطون، فيهم مدoun عن النميمة وتقليل المواجه ولذلة كشف المخفي ويدعون لها ولأولادها بالستر والبركة وللفقدان بالرحمة. أبواب السماء عادة ما تلين أكثر وستجيب أسرع لدعوات وأصوات المحروميين والجائعين عندما تكون

حارة ومن القلب مضمخة بطعم ورائحة الزفر واللحوم (١١).
جذت على شفتها السفلی بأسنانها وهي تهمس (للشقيق) في
جدیه أن يكون جاهزاً وعلى ندھة، ودست في يده سراً كبـة ریالات
وھین تأکدت أنه استوعب ما همـت به أجبرته نظرتها الأمـرة المخدرة
أن يخـى الـريـالـات في سـيـالـتـه بـسـرـعـة وـيـنـطـلـقـ ليـكـملـ مـهـامـه دونـ کـلمـة
وـھـوـ يـکـادـ يـطـيرـ بـأـجـنـحةـ منـ فـضـةـ..

• لحقت (نوال) حسب المـوـعـد بـعـرـيـةـ الأـسـطـىـ (عبدـهـ عـوـادـ) انتـظـرتـهاـ
عـنـدـ السـجـنـ فـيـ الـثـالـثـةـ وـالـنـصـفـ، أـشـارـتـ إـلـيـهـ تـنبـهـهـ حـينـ وـجـدـتـهـ يـتـطـلـعـ
بـحـثـاـ عـنـھـاـ.. سـأـلـھـاـ فـيـ لـهـفـةـ عـنـ مـدـىـ تـوـفـيقـھـاـ فـيـ الـزـيـارـةـ.. وـظـلـ طـوـالـ
الـطـرـيـقـ يـوـاسـيـھـاـ وـيـؤـكـدـ لـھـاـ أـنـ غـداـ سـتـوـفـقـ بـإـذـنـ اللهـ.. وـھـونـ عـلـيـھـاـ
إـحـبـاطـھـاـ كـثـيـراـ حـينـ اـنـطـلـقـ يـحـكـيـ لـھـاـ حـكـاـيـاتـ عـدـيـدةـ وـفـصـوـلـاتـ وـنـکـتـ
شـارـکـ فـيـ أـحـدـاـثـ الـأـسـتـاذـ (سـالـمـ) وـأـصـحـابـهـ.. وـانـ کـانـتـ فـيـ مـعـظـمـ
الـوقـتـ فـيـ شـغـلـ شـاغـلـ عـنـ مـجـامـلـاتـهـ بـمـاـ يـمـورـ دـاخـلـھـاـ مـنـ مـشـاعـرـ
مـخـتـلـفةـ وـھـيـ تـسـتـرـجـعـ أـحـدـاـثـ الـيـوـمـ الطـوـيلـ الـذـيـ مـرـبـھـاـ.. لـكـنـھـاـ لـمـ
تـنسـ أـنـ تـبـدـيـ لـھـ شـدـيـدـ اـنـتـباـھـھـاـ وـاحـتـفـائـھـاـ بـمـاـ يـشـرـرـبـھـ وـعـرـفـانـھـاـ
الـعـمـيقـ لـشـارـکـتـهـ الـمـخـلـصـةـ.. بـإـيمـاءـ مـتـسـائـلـةـ أـوـ هـزـةـ رـأـسـ موـافـقـةـ أـوـ
بـسـمـةـ بـيـنـ الـفـيـنـةـ وـالـفـيـنـةـ حـتـىـ لـاـ تـقـطـعـ حـبـلـ الـوـدـ الـذـيـ اـمـتدـ بـيـنـھـماـ
لـتـجـفـ عـلـيـھـ فـيـ شـمـسـ تـعـاطـفـھـ أـمـطـارـ أحـزـانـھـاـ الدـفـيـنـةـ وـلـتـبـخـرـ فـيـ
نـسـمـاتـ التـواـصـلـ الـإـنـسـانـيـ دـمـوعـھـاـ الـخـفـيـةـ..

ھـینـ غـادـرـتـ الـعـرـيـةـ مـوـدـعـةـ تـلـفـتـ حـوـلـھـاـ فـتـأـکـدـتـ أـنـ نـھـارـ الـبـلـدـ کـانـ
طـوـيـلاـ مـثـلـ نـھـارـھـاـ مـلـيـئـاـ بـالـأـحـدـاـثـ.. وـبـدـتـ لـھـاـ غـيـرـ مـعـقـولـةـ وـمـخـتـلـفةـ..
أـحـسـتـ شـيـئـاـ غـامـضاـ حـطـ عـلـيـھـاـ صـوـرـ لـھـاـ أـنـ الـصـرـاـخـ الـفـاجـعـ الـذـيـ عـقـدـ
فـيـ سـمـاءـ الـقـرـيـةـ سـحـابـ الـحـزـنـ الـقـاتـمـ طـوـالـ الـلـيـلـ يـشـرـخـ الـقـلـوبـ قـدـ
خـمـدـ وـتـسـاقـطـ مـطـراـ فـيـ الـفـجـرـ لـيـفـجـرـ يـنـابـيعـ النـمـيـمةـ فـيـ الـأـرـضـ

المكبوبة، شاهدت كثيراً من النساء اللاتي أجهدنهن البكاء جائسات مجهدات أمام بيوتهن في مجموعات يترثرن في انتظار الجولة الأخرى حين يحين وقت الجنائزه وعرفت أن الباقيات تفرقن ما بين بيت الفقيد حيث وضعن أنفسهم رهن إشارة السيدة الكبيرة وما بين الأماكن التي أعدت لتجهيز الوئيمة الكبرى تحت الطلب لحساب عم (محمد محمود الفلسطيني).. ورأت الرجال الذين قطع بعضهم الخلف حين بترت المفاجأة رأس شهواتهم أو كتمت رغباتهم وكبتتها.. وقد فكت عقد ألسنتهم، وكأنما كانت ليلة الأمس نوبة من حمى أغرقها النهار في بحر العرق الشافي، فنفض عنها غطاء الكبت والنفاق والخوف وأطلق لسان النمية وهيأ فرصة فريدة كي تتواتد فيروساتها وتفرخ لاذعة ساخرة.. أو شامنة متشفية.. أو منتقة أو حتى عازلة مشفقة تنهش سيرة الميت وتلغ في دمائه وتعيد تقييم أيامه وأعماله.. فعقدت له مجلساً على كل مصطبة.. أما في صورة محكمة لكل منهم دوره فيها ما بين قاض ومحام ومدع.. أو شاهد صدق أو شاهد زور.. أو على صورة تجمعت انتخابية انطلق فيها الخطباء يظهرون براعتهم.. ما بين معرض أو مأجور أو صاحب مصلحة أو حافظ جميل..

قائلت لنفسها لقد فجر موت الرجل تلال الهم والحزن وأزاح ركامها من على الصدور فانطلقت أخنيبة الألسنة الصامتة.. لتتسن حدتها على حجارة الغل المكبوب في القلوب والخوف الراسخ على الصدور لسنوات طويلة، منظر الشفاعة المرتعشة والأيدي المنضولة والوجوه المحتقنة جعلتها تخيل أن غاغة الهمس والنقار والشجار والسباب تتجمع كأسراب النحل في القهاوي وعلى النواصي.. وفي مداخل البيوت الطين وأمام الدكاكين التي لم تنم طول الليل على ما ييدو وواصلت الليل بالنهار.. لا تكف عن التهوييم والطنين.. مختلطة بأصوات الرجال الذين انهمكوا في إزاحة الطين عن الزراعية وتسويه الطريق الممتد على شاطئ ترعة السلطان من عند المستشفى حتى الجنينة (مسجد سيد مجاهد).. حيث خمنت حين مررت به أنهم قرروا أن تخرج الجنائزه منه بعد صلاة الجمعة بدلاً من الجامع الكبير وسط

البلد ليجد العدد الضخم المقدر له المشاركة فيها طريقاً لائقاً لن تسمح بتحقيقه الحرارة الضيقة المتداة من الجامع الكبير إلى المحطة.. وأبتسمت لتصورها أن خروج الجنازة من (سيدي مجاهد) محاملة لها معناها من العمدة لعلو البلد.

ويذلّك يتحقق للجنازة مسار طويل يليق بها ويحقق أغراضاً خفية إذ سيلتقي الموكب الشعبي عند كوبري المستشفى بالترتيبات الرسمية على جسر الزراعية نفسه فتهيأ لها الفرصة كي تكون ركبًا مهيبًا يليق باليت الكريم حتى المقابر..

ابتسمت ساخرة للخاطر الذي رسم صورة موجات الطنين المتضاد من أضلاع القرية أسراباً تغمر فضاءها على هيئة موجات من نحل الكلمات ينطلق من الأركان والزوايا والمصاطب وحتى من المقاعد العلوية للعرسان الجدد ومن الأحواش المفتوحة على الحارات وعبر شارع السوق حيث المقاهي العديدة.. ومن ساحة المحطة حيث دكاين الحلاقين والترزية والتي كانت منذ سنتين ميادين لمعارك أخرى من الكلام والجدل حول الجمعية التعاونية وبور سعيد والتأمين وإنذار (بولجانيين) والاتحاد القومي الآن أخلت الساحات لطنين النميمة التي انطلقت من عقالها وكأنما المطر الذي انهمر مع فجر اليوم وأخر الليل قد أذاب الصراخ الملتف على الفقيد في تربة أضناها الظماً كي تشرب من دمه.. وتنهش جثته التي لم تكن قد بردت بعد..

- صك أذنيها صوت الشيخ (مسعد) الأعمى يصرخ..

- من أعمالكم سلط الله عليكم.. اتقوا الله يا كفرة - يا بلد حقت عليها اللعنة من زمن قديم بما فعلت. أسرعت تنجو بنفسها وهي تسد أذنيها وما أن دخلت إلى البيت حتى ردت الباب في عنف تحول بين أذنيها وبين ذلك الطنين المترافق الهائج الذي تنفسه مئات الألسنة الحادة.. وارتاحت حين عم صمت عميق شجعها على ألا ترد على نظرات العيون الملهوفة المتسائلة التي هلت مرحبة وهي تحاصرها في وجوه إخوتها وأمهاتها وأبيها.. واكتفت أن ابتسمت معترضة وأشارت لهم برغبتها أن تخلو لنفسها ل تستعيد روحها من أسر شبكة الانفعالات

والمشاعر المتناقضة التي ارهقتها طول النهار.. ولكي تعطي نفسها فرصة لتفكر فيما ستقوله لهم وفيما استفعله فيما لو عادت غدا لتكمل ما بدأته اليوم.

تبادل الجميع نظرات الدهشة لتصرف (نوال) الغريب والمفاجئ.. (عبدة أفندي) غضب وقرر أن ين ked عليها، إزد وجهه وغمغم كعادته عند الغضب:

- إيه ده ..

لكن نظرة زوجته اللوامة جعلته يشيخ بوجهه كاتماً غضبه:
- مش تقول لنا زارتـه والا لا؟.. أما غريبة والله.. قلبي حاسـس أنها لبخت الدنيا؟.. أمال؟.. الله.. فيـن السبت؟!..
- صبرك بالله يا (سي عبدة) البنت راجـعة هـلـكانـة أـنت بـتـسـهـون بالـمشـوار دـه؟.. دـلـوقـتـي حـتـستـريـح.. وـحـنـعـرـف كلـحـاجـة؟!..
الأخ الأصغر من (سالم) قـام دونـكلـمة وـعـاد إـلـى كـتبـه حـانـقاً ليـفـتشـ فيـأـورـاقـه ثـم يـخـرـج بـضـع أـورـاقـ تـعـمـد دـفـنـ رـأـسـهـ فـيـها..
الأخـوانـ الأـصـغرـ عـادـا إـلـى لـعـبـهـماـ فـيـ الحـجـرـةـ القـبـلـيةـ البعـيـدةـ..

يلاحـقـهـما صـوتـ الأمـ:

- منـغـيرـ حـسـ.. خـلـوـهـاـ تـنـامـ شـوـيـةـ.. وـانتـيـ ياـ (ـشـهـيرـةـ).. قـومـيـ قـشـريـ حـبـيـتـيـنـ بـطـاطـسـ وـهـاتـيـ بـيـضـ مـ العـشـهـ وـوـلـعـيـ عـلـيـهـ يـنـسـلـقـ.. لمـ تـنـتـظـرـ الصـفـرـيـ أـنـ تـكـلـفـهـ بـشـءـ فـقـامـتـ مـسـرـعـةـ وـهـيـ تـقـولـ:
- أناـ قـائـمـةـ أـذـاكـرـ.. عـنـديـ أـمـتحـانـ..

الأـمـ التيـ تـحرـصـ عـلـىـ اـنـتـظـامـ موـاعـيدـ الـوجـباتـ وـعـلـىـ ضـرـورةـ تـواـجـدـ كلـأـفـرـادـ الأـسـرـةـ سـاعـةـ الأـكـلـ.. قـرـرتـ أـنـ تـؤـخـرـ العـشـاءـ قـليـلاـ حـتـىـ تـسـتـريـحـ (ـنوـالـ)ـ بـمـاـ يـكـفيـ لـتـشـارـكـهـمـ العـشـاءـ.. كـانـ هـنـاكـ اـتـفـاقـ ضـمـنـيـ شـبـهـ مـلـزـمـ لـلـجـمـيعـ بـتـجـنبـ أـيـ نـقـارـ أوـ شـجـارـ عـلـىـ الأـكـلـ.. لـأـكـلـ حـرـمةـ وـالـأـنـفـعـالـ يـفـسـدـ الـهـضـمـ وـالـغـضـبـ يـسـتـدـعـيـ الشـيـطـانـ.. فـلـاـ تـسـرـىـ اللـقـمـةـ وـلـاـ تـمـرـيـ الـجـسـمـ وـلـذـلـكـ وـلـأـنـهـاـ تـعـرـفـ طـبـاعـ الزـوـجـ وـتـقـنـ فـنـ التـعـاـمـلـ معـ انـفـلـاتـ مشـاعـرـهـ وـتـقـلـبـاتـهـ، لـمـ تـجـدـ خـيـراـ مـنـ هـذـهـ الـوـسـيـلةـ كـيـ تـهـدـيـ مـنـ التـوـترـ الذـيـ خـالـقـهـ تـصـرـفـ (ـنوـالـ)ـ الـمـثـيرـ لـلـدـهـشـةـ

والغضب!.

لکن (عبدہ افندی) کان یغایی ..

- البت دی مش ح تجيبيها البر.. الخوف أن يكون عملت حاجة خلط
تخلي المباحث ترميه في الواحات.. طب لو كانت مازارتش اهال ودت
الأكل فين؟..

- هارهتش بیت خالها؟..

- يمكن راحت وسابت الأكل هناك تسبلا

أنا اللي غايبتنى أنها أتأخرت..

- ما تأخرت.. أكيد رجعت مع (الأسطورة عبدة).. راجعة في الميعاد
بتاعه..

- وكانت طول الوقت ده بتعمل إيه

- معدذورة.. لو كان فيه حاجة وحشة كانت قاتلة.. كل حاجة ح تبان..
بس أنت هدي نفسك ح أقوم أعمل لك شاي..

لأ.. أنا قايم رايح دكان (شطا).

- يا راجل.. طب ولو سألك (نواں) عملت إيه في (المنصورة)..
حتقول لهم إيه؟.. أقعد أقعد كل البلد زمانها عرفت بسنه

قعد (عبده أفندي) وانطلاقت الأخت الصغرى إلى باب السلم تفتح
كن ندشت من أسفل..

- یا سُت (أم سالم)!

كانت (عزبة البكري) توأم (نوال) الروحي.. قد تركت كل شيء لتطمئن وتهدى من قلقها خاصة وأن (مجدي) لقيها وسط هوجة تجهيزات الدفن في بيتهما.. ولم يضيع فرصة ولم يراع الظروف وانهال عليها تكريعا ولواما.. ليُفتش غضبه لما لقيه من (نوال) وطبعا حكى لها من وجهة نظره ما حدث بينهما في (المنصورة)..

- أهلا يا (عزة) يا بنتي.. تعالى.. جيتي ف وقتاً..

- (نوال) عملت إيه؟ طمنوني؟ زارت (سالم).. إيه اللي حصل؟..

- إنتي اللي حترفي اللي حصل وتقولي لنا.. خشي بالراحة كده..
وهدي سرها.. دي راجمة شايلة طاجن ستها.. أدخلني.. أنتي اللي ح

تريحيها..

دخلت (عزة) وأختفت في غرفة (نوال)..

بينما زام (عبد الله أفندي) متسللاً..

- والله ما جايب لنا الكافية إلا لتهم على بعض.. كل المصائب من الصنف ده.

- يا راجل حرام عليك.. قوم صلي لك ركعتين واستهدى بالله..

- طيب يا اختي.. راح أصلبي..

وقام ليصلي بالفعل.. منتظرًا على جمر القلق ما استكشف عنه الليلة التي لا يبدوا لها آخر..

وأثناء الصلاة سمع زوجته على السلم تحدث كما خمن وفدا من نساء القرية، جاءوا يطمئنون على نتائج رحلة (نوال).. وبطريقتها

الدبلوماسية التي يحسدها عليها كانت تضحك في اطمئنان يغيب:

- تعيشوا علينا ولية يا رب.. لا يا اختي بخير.. زارتة طبعاً.. أنتو

عارفينها لما يطلع في دماغها حاجة.. لازم تنفذها.. أكيد.. يا نن عيني.. طبعاً لا.. هو بخير وهي كمان بس لو لا إنها تعانه من المشوار

كانت طمنتكم بنفسها.. لا.. لا.. دي نايمه شوية تستريح.. ان شالله ما نجيلاكمش في وحش.. تعيشي يا حبيبتي.. مع السلامه.. نفسكم

معانا.. سلمي ع الحاجة يا (وداد).. وأنتي يا (عديلة) يا اختي ما تروحيش وتقولوا عدوبي.. أيوه.. الصباح رياح طبعاً.. مع السلامه..

على ضوء ما سمع خمن عدد الألائي تزاحمن على السلم وأمام

الباب.. فاستفرق في الصلاة.. وهو يتمتم بالآيات البينات محاولاً أن

يجد فيها بعض السلوى.. حتى جاءه صوت زوجته هامساً حتى لا

تقطع صلاته:

- الأستاذ (مصطفى) و(أحمد بكر) تحت في المدره عايزيينك..

ومعاهم (محمد ابو شعراوي)..

أقشعر بدنه للاسم الأخير.. وأسرع يسلام لينزل إليهم مهرولاً..

يخفي عجزه عن تجهيز ما يقوله لهم وهو يحسد زوجته على بديهتها في الرد على النساء.. لكن هؤلاء لا ينفع معهم ذلك خصوصاً (ابو

شراوي) لكنه قال: يا رب سترك..

زعق وهو يدخل عليهم..

- الشاي يا اولاد..

الكل رد على تحيته وبعد السلام قال (مصطفى الزفتاوي):

- مالوش لزوم.. احنا مش جاين نتضايف.. كنا مارين فدخلنا

عايزين بس نطمـن..

لم يكن يعرف كيف يكذب.. وأحس قبضة حديدية تعصر قلبه وهو

يتبع نظرة (أبو شراوي) الصفراء التي ترید جنازة تشع فيها لطم..

. فقال بسرعة ودون تردد: ح تتطمنوا انشاء الله لما احنا نتطمن؟ خير انشالله..

- ليه؟ خير؟.. هي الست (نوال) مازارتـش.

قالـها (أبو شراوي) كأنـه يتـشفـى أو ليـوـحـي أنه يـعـرـفـ كلـ شيءـ وـردـ

(عبدـهـ أـفـنـدـيـ) ليـقـطـعـ عـلـيـهـ اـسـتـمـتـاعـهـ بـالـتـشـفـيـ:

- حتىـ ياـ سـيـديـ لوـ مـازـارـتـشـ،ـ الحـكاـيـةـ مشـ سـهـلـهـ إـحـناـ عـارـفـينـ..ـ عـلـىـ

كلـ حالـ أـكـيدـ لـماـ تـصـحـىـ منـ النـوـمـ حـ نـعـرـفـ..

افتعلـ (أـبـوـ شـرـاوـيـ)ـ الـدـهـشـةـ وـهـوـ يـنـكـشـ فـيـ الـجـرـحـ..

- مشوارـ صـعبـ!ـ اللهـ يـكـونـ بـعـونـهـ..ـ آـنـسـةـ زـيـ دـيـ حـ تـعـمـلـ إـيـهـ فـيـ وـسـطـ

الـنـاسـ دـيـ وـهـيـ لـوـحـدـهـ..

أـسـرعـ (مـصـطـفـيـ الزـفـتـاـويـ)ـ يـغـيـرـ المـوـضـوـعـ لـيـسـدـ الـأـبـوـابـ فـيـ وـجـهـ

ريـاحـ (أـبـوـ شـرـاوـيـ):

- الـسـتـ (ـنـوـالـ)ـ قـدـهـمـ كـلـهـمـ..ـ السـفـرـ مـتـعـبـ..ـ دـالـمـشـوارـ (ـلـلـمـنـزـلـةـ)ـ بـيـهـ

الـرـاجـلـ مـنـاـ..ـ عـلـىـ كـلـ حـالـ يـاـ (ـعـبـدـهـ أـفـنـدـيـ)ـ اـحـناـ كـنـاـ جـاـيـنـ نـتـطـمـنـ..

وـاحـناـ اـتـطـمـنـاـ..ـ مـادـامـ جـتـ بـالـسـلـامـةـ..ـ يـالـاـ يـاـ (ـأـحـمدـ)ـ..

كانـ يـرـيدـ أـنـ يـوضـحـ (ـعـبـدـهـ أـفـنـدـيـ)ـ بـمـاـ لـاـ يـتـرـكـ مـجـالـاـ لـلـشـكـ أـنـهـمـاـ

لـمـ يـحـضـرـاـ (ـأـبـوـ شـرـاوـيـ)ـ مـعـهـمـ..ـ وـأـنـهـمـ جـاـيـنـ مـنـ سـكـةـ تـانـيـةـ..

- فـوتـنـاكـ بـعـافـيـةـ يـاـ (ـأـبـوـ شـرـاوـيـ)ـ..ـ سـلامـوـ عـلـيـكـمـ..

فـهـمـ (ـأـبـوـ شـرـاوـيـ)ـ مـاـ قـصـدـاهـ..ـ فـقـامـ نـصـفـ قـوـمـةـ مـتـكـاسـلـاـ كـمـ

يـطـلـبـ مـنـ صـاحـبـ الدـارـ أـنـ يـطـلـبـ مـنـهـ الـبـقاءـ:

- استنوني.. مالوش لازمة نضايق (عبده أفندي) أكتر من كده..
أسيبه يستريح كفاية عليه اللي هو فيه!
لكن (عبده أفندي) فوتها عليه وتركه يلحق بهم كاظماً غيظه لأنه
كان متأكداً أنه لو بقى لدقيقة أخرى - وأنفرد به تخنقه بيديه.. وليس
أقل منها ليستريح.. ويشفي غليله..

غتاتة (أبو شعراوي) استنفذت جزءاً كبيراً من طاقة غضبه لذلك
عندما صعد فوجد العيال يتحلقون حول طبلية العشاء وسطهم
(نوال) اكتفى بالقاء السلام.. وانضاف في رنة ضمنها جزءاً من
أنفعاله:

- حمد لله بالسلامة..

بطريقتها التي لا تخطيء أبداً والتي تسبقها بسمتها العريضة:

- تسلم لي يا أغلى (بابا) في الدنيا..

التقط الطعم وهو يحاول جاهداً إخفاء ابتسامته التي عادة ما
يبدل طاقة عنيفة لاختفائها أو إفسادها.. للإحتفاظ بجهامه يراها
لازمة للعب دور الأب القاسي على أولاده ليظلوا على صراط الأدب:

- أيوه.. أيوه.. خدوهم بالصوت..

ثم يبدل لهجته الضعيفة التي خرجت رغمها عن أنفه تعاتبها إلى

لهجة تأنيب واضحة:

- إيه اللي انتي عملتيه ده؟.. مش عارفه أنتا قاعددين من الصبح
على نار؟.. إيه اللي حصل؟.. زرتيه؟
تدخلت الأم وهي تفسح لنفسها مكاناً بعد أن أحضرت أهم ما
يطلبه دائماً في كل طقة.. وهي أعود الخضراء الطازجة المغسولة جيداً
وبالعود..

- ع الأكل؟!.. مافيش جدل على الطعام!

- اهدأ بس يا بابا يا حبيبي.. وأنا ح أحكى لكم اللي حصل من
طأطا لسلامات عم (عبده عواد)..

حتى أخواتها الصغار لهم ذكريات معه فهال الكل..

- هو اللي كان سايق النهاردة؟..

- يا ريتك خدقيني معاك..

- لسه زمارته زي ما هية والا غيرها؟..

- خلاص.. ح نحكي في (عبدة عواد) والا في حكاية (بنت بري)..

اتفضلي احكي لنا إيه اللي حصل..

وحكت (نوال) كل ما حصل.. وكما فطمتها (عزة) لم تذكر لقاءها (بمجدي).. وحولت صاحبة البوفية زوجة (القص) إلى محامية شهيرة صديقة لخالهم القاطن (بالمنصورة).. تعرفت عليها.. وسهلت لها كل شيء ولو لا أن النيابة كانت في تحقيق خارج المحكمة لحصلت على إذن الزيارة وانها انشاء الله في الغد سوف يكون أول مشوار لها هو الموعد الذي ضربته لها المحامية للحصول على إذن النيابة..

وكاد تلجاجها في الإجابة عندما سألهما عمما فعلت بالسبت وبالأكل.. أن يكشف الأمر لكنها بعد أن شررت جرعة ماء ببطء وحمد لها الله لنجاتها من الشرقة التي أصابتها فجأة..

- يا خبر.. مين اللي جايب في سيرتي الساعة دي..

لم يخل الأمر على الأم ولكن الوالد شاركها حمد الله وقد ملأ قلبه الخوف عليها بالفعل وقال:

- ابلغي ريقك واهدي.. يروح في ستين داهية..

- لأ.. أنا قلت بدل ما بيروض وزعته على أهل الله قلت عشان ربنا يكرمنا وزعته على ناس غلابه على اسم أخيها (سالم).. ما كانش الأكل ح يستنى لبكرة..

والفاشي؟.. رمتيه؟.

- لأ.. سببته أمانة عند واحدة ست طيبة.. بتاعة البوفية بتاع النيابة..

والتفت إلى أخواتها مداعبة..

- انشاء الله ح املأه لكم بكره يوستفendi م اللي بتحبوه..
هلووا وزاطوا.. فرحين.. وساد جو من البهجة التي كبتها طول شهور سجن (سالم) وما فرضه على القرية كلها من أسى وخوف..
قام (عبدة أفندي) بعد أن هدأ باله ليكمل سهرته أمام دكان

(محمود شطا).. وقد تسليح بما يكفي من روح معنوية للإجابة على ما سيطراً لهم من أسئلة بل ولإشارة غيظ (أبو شعراوي) لو تصادف وجوده هناك..

(صلاح) الأخ الأصغر بستين من (سالم) اقترب من أخيته بجدية وشدها إلى حيث كان يذاكر.. وأخرج عدة صفحات في خجل وهو يقول..

- ممكناً تبقى تأخذني دون (سالم)..
- وأضاف ردًا على تساؤلها..
- دyi قصة قصيرة.. كتبتها عنه وعن البلد وأيام الجماعة..
- معقول! قصة قصيرة مرة واحدة!

تصيب العرق من جبينه حتى خافت عليه، فضمنته إلى حضنها في حنان وهي تقبله:

ـ ده كان يفرح قوي.. بس خليني أقرأها الليلة.. يمكن يكون فيها حاجة ممنوعة والا حاجة.. داناًج أدخل بها عش الضبابير.. وضحكا من القلب.. وغمر البيت كله احساس غامر بالاطمئنان بل وبالسعادة لم تعرفه منذ شهور.. وكأنما (سالم) قد شاركهم العشاء.. وخرج ليقابل أصدقائه ويقضي معهم الليل كعادته من قبل.

● بعد العشاء وخروج أبيها إلى الدكان، أنهملت أمها في الالشراف على ترتيب المكان.. تسحبت (نوال) وألقت بالطحة السوداء على رأسها.. وتناولت شيئاً ملفوفاً في ورقة من جريدة الأهرام ونزلت السلم.. جرى أخوها الأصغر من (سالم) وراءها.. زاعقاً..

- انتي خارجة؟.. رايحة فين؟..

لهم ترد ولكنها أشارت إليه أن يتبعها.. فأسرع ووضع قدمية في الشبشب.. ولحق بها..

- إنتي مش ح تكري القصة بقى؟

- ح اقرابها في الشارع؟.. أما نرجع - ح اقرابها يا سيدى..
مضى يهرول محاولا اللحاق بخطواتها السريعة، أمسك حذرا من
الظلام بيدها وهو يعبر معها الشارع.. وقطع المساحة عند ملتقى
النواصي وهي لا تتكلم:

- على فين؟..

- تعالى بس معايا خليك جدع. تعالى ونسني..
كانت (عزبة البكري) قد حكت لها عن يومها الطويل في بيت
المرحوم.

- الست قابلتنى وطببت عليه لكن الكل ما كانوش طايقنى..
الغريبة أن (حمدى) ما فتحش بقه بكلمة.. كان مكسور وتأية وصغير،
بس لي حته بصة.. لكن أنا عزيته بجد واتصرفت كأني ما سيبتش
البيت لحظة.. أمه كانت ح تجنن عشان مالقيتش ورقة جواز (فرج
الله).. طبعا داتالتش حاجة عنها لكن أنا فهمت بالحداقة لما اتكلمت
مع (حمدى) عن الخزنة.. واللى فيها.. والأوراق وكده.. كانت كل شوية
تبرطم كأنها تعلن مخاوفها. فتقول كل شوية.. (لكن أنا مستفريدة
ومتأكدة فيه حاجة ناقصة؟.. فيه حد منكم شاف حاجة منظوره كده
وala كده؟.. انتي با بت يا (سعديه).. بصيتي تحت السرير كويس؟ يا
(رتيبة) مين اللي كنس الأوده ورتب السرير؟..)، لم يكن أحد قد دخل
إلى هناك كما عرفت إلا بعد أن فتشت كل شبر.. لو كانت عرفت أن
الورقة عندي كانت دبحتني وتابوت جتنى معاه في زفة واحدة! لكن ريك
رب قلوب.. وستارع الغلابة ويحب البت (فرج الله) دي.

- لكن أنتي ما كلمتنيهاش في موضوعك.. ما جابتتش سيرة؟

- في ساعة روقان كده.. وفجأة بعد سرحة طويلة..
قالت ظى.. (ما تحمليش هم يا (عزبة) يا بنتي! انشاء الله أول ما

نفوق م اللي احنا فيه وتروق، أو عدك تنهي موضوعكم البايخ ده أنا حاسة باللي انتي فيه.. احنا مش حندفن بنات الناس بالحياة.. كفاية لحد كده).. تتصروري أنا كنت ح زغرت ومسكت نفسى بالعافية.. لكن (مجدى) وصل، ين ked عليه لما حكى لي على مقابلتكم في (المنصورة).. حسيت أنه ح يعمل المستحيل عشان ماتزوريش (سالم).. حاجة غريبة.. إيه مصلحته ف كده؟.. مش عارفه؟.. وطول ما هو قاعد ما فيش غير اسم (الباشا عاطف) على لسانه (الباشا) قال (الباشا) (عاد).. (الباشا) ح يقطع دابر مش عارفه مين؟ لا دا بهدل مين؟ ويكره ح تشوفى ح يعمل إيه مش عارفه.. لكن تعرفي يا بت يا (نوال) - أنا انبسطت منك عشان سكريتية فوق دماغه!

كتمت (نوال) صوت الضحكه التي كانت تصارع للانطلاق اعجاباً بنفسها وفرحاً بما سوف يحدث (لعزه) عندما يفيق الجميع من كابوس وفاة الشیخ (مقبل).. فقد يمكنهما بعدها أن يفعلا شيئاً لحفظ حق (فرح) صحيح أن الوریث قتل جنينا.. ولكن هي لها حقوق أكيد.. مات وهي على ذمته، وان ما كانش فيه دم.. الخوف من الفضيحة لابد يدفعهم لتعويضها.. بأي حاجة.. تنشاها من الغلب اللي هي فيه!

محتمية بالظلم دقت على الباب طويلاً.. ولكن (فرح الله) لم تفتح.. أعادت الدق بقوة أكبر.. وبإصرار من لمن يتراجع.. انفرج الباب حين دفعه أخوها فأزاح الحجر الذي يسنده.. دلفا إلى غياب الظلمة التي تجثم على الفراغ.. وهي تهمس:

- (فرح)! بت يا (فرح الله)?.. انت فين يا بت؟ ردت عليه..
تشبت أخوها مرعوباً بذراعها. حين أحس بلزوجة الضلام تلامس جلد وجهه، وبدت له أشباح هلامية تتحرك في الأركان.
- انتي يا (فرح)..

تحشرج صوت (نوال) وهي تحاول أن تبدو أشجع.. إلى أن بدأت عيونها تكتسب قدرة باهتة على تمييز ملامح الفراغ حين انكشفت

فرجة في السقف لمحت فيها بعض النجوم.. في ركن مواجهه للسلم
العجوز المندمج من أزل في طين الحائط الصاعد من كتلة السواد.. بدا
شبح جسد (فوج) مكomaً ولعت عيناهما وسط الفراغ اللامتناهي كعيني
قطة منكوشة الشعر تزوم..

لم تنطق بكلمة، تقدمت (نوال) وقرفصت إلى جوارها ولما لمستها
انتفض جسمها وخرجت من فمها آهة مكتومة قشرخ صدرها بحرقة
هم أخرس لا عمر له.. - إهدى يا (فوج).. هدي نفسك.. انشاء الله كل حاجة ح تتصلع.. ما

تاكليش في نفسك كده ربنا حينصفك..
لم تبد (فوج الله) أي بادرة للاستجابة.. مدت (نوال) ذراعها وتركت
اللفة تقع في حجرها.. تحرك رأسها المنكوش الشور ذو العينين
الناريتين.. تشنج في حركة لها هزيم متواتر غاضب.. شمalaً ويميناً..
مما جعل الفتى يرتجف من الرعب والانفعال.. فقامت (نوال) بائسة
عاجزة.. وهي تسحبه للخارج يائسة من أي تواصل معها الآن..
بعد أن سحبت الباب خلفها.. أحضرت أخاها.. تهدئ من رعشته
نادمه لأنها اصطحبته معها من الأصل وابتعدت به عن الدار وهي
ترى على ظهره تارة أو تقبل رأسه حتى هدا.. وسألها بعينين داهعتين:

- إيه اللي، جرى (لفرج الله).. إيه الحكاية؟

- دي حكاية طويلة.. (تاريخية)!!

- هيـه بتعمل كده ليـه.. عيانـه بـايـه؟

- عيانـه بالـفـقـر..

سرح (صلاح) في القصة التي أعطاها لها لتقرأها وهو يقول:
ـ كلـهم عـيانـين بـالـفـقـر..

لم تتوقع إعجابـته.. فتوقفـت تتأمل وجهـه الحـزين في دهـشـة أبـتسـمـةـها بـسـمةـ مـفتـصـبةـ مـعـتـذـراـ عنـ الـحـالـةـ الـتـيـ اـنـتـابـتـهـ وـقـالـ فيـ لـهـجـةـ حـاـولـ أنـ يـخـلـصـهاـ مـنـ انـفـعـالـاتـ رـعـبـهـ وـلـيـثـبـتـ لـهـ أـنـهـ أـشـجـعـ مـمـاـ رـأـيـهـ:

- توـعـدـيـنـيـ لوـ عـجـبـتـكـ القـصـةـ تـاخـدـيـهاـ (سـالمـ)ـ..

ترـقـرـقتـ دـمـعـةـ فـيـ عـيـنـيـهاـ وـهـيـ تـرـىـ فـيـهـ (سـالمـ)ـ الـذـيـ تـحـاـولـ جـاهـدةـ

أن تستحضر ملامحه من بين ركام صوره الباهته في عمق الذاكرة المجهدة:

- مش لما تعجبني؟ المهم الليلة يا عم تساعدي عشان أخلص اللي ورايا بخصوص بكرة، ولك عليه مشح أنام إلا لما أقرأها يا سى (سالم).

- أنا (صلاح).. مش (سالم).. هووه اللي واكل عقلك؟
كركت ضحكة معذرة.. لكن صفاءها لم يهز شعره من جسد الظلمة الذي جثم راسخاً بطول الشارع وعرضه..

(القصة التي كتبها (صلاح) ولم يقرأها (سالم) لأن (نوال) خافت أن تصبح دليلاً ضده في القضية لوضبطت معها..)

الكمثرى لم تكن تقاحة

• أمام باب «دار جبر» وقفت مع أخي الأكبر.. وقد ازداد اعجابي به وحببي له.. أسبوع وأنا أدور معه على بيوت قريتنا (ميت سلسيل) كل يوم من الصباح حتى العشاء.. لا أتعب أبداً.. بل وكنت أ Semester النش والألوان.. البعض يرسم والبعض يكتب ولكن الجميع يتكلمون ويتناقشون.. موضوعات كثيرة أفهم بعضها.. ومعظمها لا أفهمه.. ولكنني كنت أعرف أن كل هذا الحديث سببه الجمعية التعاوية. كان

أخي يقول في تصميم إننا لابد أن نطرد اللصوص منها وأن البلد لابد
أن تنجح في الانتخابات، والأموال المسروقة سوف يعيدها أخي للناس..
كنت سعيداً ب أخي، وكنت سعيداً بنفسي لأنني ألازمه باستهرار وأنني
أعمل معه ومع أصدقائه طول الوقت.. ولأنهم يعملون ويجهرون
ويديرون الخطط في منزتنا..

كنت أحس أنني رجل مثلهم. الآن أعرف الكثير من الأسرار وأخفيها
أرسلني أخي ذات مرة إلى المدينة لاستلم أوراقاً وضعتها تحت بعض
الفاكهة وعدت بها واستطعت أن أنفذ كل ما قاله لي تماماً.. ومنذ ذلك
لم يعد أحد يخفي عني شيئاً.. ولا يحذروه ويقول أمامي أي شيء.
لقد تأكدوا الآن أنني معهم وأنني أصلاح لهم صعبة - كالسفر إلى
المدينة والعودة بأوراق يجب ألا يراها أحد.. و كنت أنقل إلى الساهرين
في منزنا كل ما يدور على مصاطب ومقاهي القرية. وكانت كل
الأحاديث عن الجمعية.. بل وكان لي عدد من الأصدقاء في مثل سني
يساعدونني. وذلك في مقابل أن أتركهم يوزعون الأوراق التي تتحدث
عن الجمعية. أو قصائد الشعر والزجل التي تتحدث عن الموضوع، أو
يحرسون مجلة الحائط ويقرأونها للفلاحين، أو يحملون معهم جردن
البوية أو النسا والسلم عند لصق الصور والبيانات على الجدران.

الحكاية بدأت عندما عاد الطلبة في هذه الإجازة إلى القرية، وفي
قريتنا عدد كبير جداً من الطلبة طردهم المدينة فور انتهاء
الامتحانات مباشرة. لم تكن القرية ترحب بعودتهم كثيراً، فهم عادة
يحدثون ضجة كبيرة. يعودون من المدينة بعادات غريبة سيئة ترهق
الأهل وتزعجهم، أنهم يقرؤون الجرائد، يرسلون الخطابات ويجلسون
على المقاهي وكل هنا يتطلب مالاً. البعض يقطع الطريق على
الفتيات، أو يدخل السينما في المركز.. المهم.. كانت عودة الطلبة مع
بداية الصيف في كل عام كارثة ينتظر وقوعها الجميع..

لكن صيف هذا العام، جاء بشيء جديد.. فلم تمض أسبوع قليلة
حتى كانت قريتنا يملؤها الصخب والضجيج، لكن هذه المرة لم يكن
ضجيجاً يضايق أهل القرية وإنما شارك كثير من الناس الطلبة في

إحداثه.. ولم يضيق سوى القلة القليلة. تعودت قريتنا السهر والنقاش على المقاهمي وعلى النواصي.. وفي ضوء القمر وفي الظلام وقيل كلام كثير.. كثير.. لم أكن أفهم معظمها.. لكنني شاركت فيه بأحداث أكبر ضجة ممكنة!

الأهم عندي أن بيتنا كان مركزاً لما يحدث، وأنا أسكن فيه. لذلك كنت أشعر بأهميتي الكبيرة عندما كنت أجده نفسي مع الصغار.. وكثيراً ما كان ذلك يحدث - لأن بعض الكبار قد سافروا إلى المدينة وهذا العمل في انتظار عودتهم مثلاً - كنت أحكى للصغار ما نفعله «نحن الكبار من بيتنا في الليل.. وآخذنهم وندور على الجدران التي تحمل الكلام الذي كتب في الليل أو أقرأ لهم ما كتب على الأوراق الملصقة في كل مكان بل وكانت أشرح لهم.. مثلكما كان الكبار يفعلون مع أهل القرية.

ولم أكن أستطيع أن أجيب على كل الأسئلة ولكنني شرحت لهم كيف أن هذه الجمعية غنية جداً.. ويمكن أن تشتري أرض بلدنا وتجعلها كلها جنينة فواكة ووابورات حرش وفراخ وكتب وسيئها.. ولكن في الجمعية لصوصاً يسرقون أموالها.. وقلت لهم أيضاً أن الجمعية سوف تجعلنا جميعاً نلبس بدلاً طويلاً.. وإنما يمكنها أن ترسلنا إلى مصر جميعاً لكي نتعلم هناك..

وكان الأولاد يصدقونني لأنني أسهر الليل كله مع الطلبة الكبار الذين يقرأون الصحف ويعرفون كل شيء.. وغاب أخي يومين في المدينة ثم عاد.. وأخبرته أنني توليت شرح كل شيء للصغار أثناء غيابه، فأخذني معه لن دور على بيوت القرية لجمع توقعات الأهالي. كان أخي يقول إنه لكي نطرد لصوص الجمعية يجب أن يجتمع كل الناس في مكان واحد ومعهم هذه الأوراق التي يختهونها بآخرتهم ثم يصرخون وفي «نفس واحد» ويقولون لهم - أتركوا الجمعية!.. فيتركونها، وتعود كل الأموال إلى أصحابها الفلاحين، وتصبح قريتنا جنة مثل مصر أو أحسن!.

كان أخي يدخل كل البيوت. يستقبله الجميع بحب كبير، شربت شاياً كثيراً، وأكلت (فول سوداني) وكعكاً. وفطيراً أكثر من مرة، وكان

الجميع يعطونه اختامهم، لأنهم كانوا يثقون في كلامه.. وكانوا متاكدين أن وضع اختامهم على تلك الأوراق كاف لتحقيق كل أحلامهم.. لهم يكونوا ينادشونه.. فالحلم أصبح أقرب منه إليهم وإلى.. وكانت تخيل نفسي أصرخ مع الصارخين يوم الاجتماع المنتظر أبيها اللصوص.. أن معنا الأوراق والأختام.. أخرجوا من الجماعة واعطوا لنا أموالنا.. فهذه الأوراق المختومة ستتصنع كل المعجزات..

وكنا في ذلك اليوم قد جمعنا أختاماً كثيرة جداً.. وسمينا دعوات طيبة كثيرة جداً.. وأمام باب (دار جبو) وقضنا.. ونادي أخي..

- ياهوه.. يا ستار.. يا ناس.. يا أولاد (جبير) الدار خالية.. يا
قربي؟! ودخلت بسرعة لأرى. كان الحوش واسعاً تغمره الشمس، في ركن
الغرفة كانت الجاموسية تمضي في كسل.. وعندما أحسست بي التفت
ونحوت مرحبة، وهي تطمرد الباب بذيلها.. وظللت الدجاجات تنبش
الركن المشمس بحثاً عن شيء تأكله.. ولم تعرني اهتماماً، لكن ذكر
البط توقف لحظة عن صيد الباب، وعندما عرفني استمر في
مطاردته بنشاط، وهو يزعق بين الحين والآخر. ناداني أخي ولكنني
كنت منهكأ في متابعة ذكر البط فلم أرد عليه، دخل متسللاً. وعدت
أنادي بصوتي الرفيع ولما لم يجبنـي أحد.. صفق أخي. وكنت ساعتها
أمام القاعة اليمنى مباشرة.. عندما جاءنا صوت من المقهى العلوي -

ومن فوق المسلم المستند إلى الحائط أطل علينا وجه امرأة عارية
الرأس منكوشة الشعرو من بين عيني البوص المطلية بالطين.. وعندما
رأت أخي أرتفع صوتها مرحباً وهي تنشر الطين منتظفة ذراعيها..

- يا عيون خالتك (حبيبة).. تفضل..
الأختام في الطاقة.. هناك عندك مفتاح القاعة في الشباك على
اليمين..

وظهرت خلفها فتاة صفراء الوجه مريضة ذات أرجل ضخمة يديها
ملوثتين... أبتسمت لي فانفرجت شفتيها عن أسنان كبيرة مكسورة...
ونعمت لأمها قائلة، وهي تضحك وتشعر الله:

- أهه.. كانت معه عروسة.. تغمض وتفتح عيونها.
ولم يعجبني حديثها عن العروسة الآن. فأنا في مهمة رجال وليس
هذا مجال اللعب أو الحديث عن العرائس.. ولكن أمها ضحكت ولم
تقدر موقفني وقالت معلقة:

- يا حلاوة.. عقبال ما تفرح بالعروسة الكبيرة!.
ولم يعجبني هذا أكثر.. فتراجعت غاضباً ناحية باب القاعة، الذي
فوجئت به ينفتح في نفس اللحظة محدثاً صريراً عالياً كالأذنين..
وأجااني هذا فذعرت، وصرخت العجوز التي في الداخل:

- يريدون موتي. أخذوا الأرض والدار.. ويريدون موتي.. ولكن أسهم
الجمعية بتاعتي عايزةها قبل أن أموت يا أبني.. عايزة أدق التفاح..
خد الختم.. وأعطيوني النقود.. اعطيوني السهرين.. أو أعطيني تفاحة
واحدة.. سأموت ولا أدوقة. كان يقول لي سوف تأكلين منه ولا تشبعين
في الجنة، لكنه مات.. وأخذوا الأرض والدار.. و....

أرتفعت ضحكات (حميدة) وابنتها في سخرية. وأشارت إلينا بيدها
أنها مجونة.. ولكنني لم أضحك لأنني كنت أبكي!
كانت العجوز متشبثة بذراع أخي تشدّه من ملابسه وهي تحدثه..
وقالت البنت..

- تفاح يا ستي؟ إنشاء الله حابقى أروح الغيط وأجمع لك غلق
جميز.

ابتسم أخي لها - فصرخت.. ورميت بالأوراق التي أحملها على
الأرض وانطلقت أجري.. لم أهتم بصراخ أخي على وصيحتاته
المذهبة.. ولم أبال حتى بغضبه.. لقد كانت الدموع تخنقني،
واحساس مرير بالقهر يجثم فوق صدري. جريت بكل قوتي، جريت
طاردنى أبتسامة أخي التي لم أتوقعها وصراخه حتى وصلت إلى
بيتنا. دخلت.. وهناك على السلم الرخامى الرطب جلست وأنا ألهث
وأمسح دموعي حتى هدأت.. ولكنني لم أجد قدرة لكي أعود لأخي. كنت
غاضباً منه فبقيت في مكانى لا أتحرك. سمعت صوت أبي يتحدث إلى
أمى حديثاً مرحباً.. كان سعيداً لأنّه فعل شيئاً ما في المركز.. وكانت أمى

تسمع له ضاحكة بلا تحفظ..
صعدت السلم مستنداً إلى الجدار.. كان باب الشقة مفتوحاً.. وأبي
جالس في الصالة.. على الكنبة وقد خلع الچاکتة والحداء. وحوله
عدد كبير من اللفافات وهو منهمك في إخراج عدد آخر من صندوق
وقفص أمامه وأمي تنقل ما يخرجه إلى المطبخ وسألته أمي في
احتجاج لطيف..

- فین الکنافہ؟!

فقال في غضب حقيقى..
- هل جاء (رمضان) فجأة لتطلبى الکنافه.. خذى. فاكهه كثيرة..

أفتحي دكاناً
كنت واقفاً بلا حراك مستنداً إلى الباب وأنا أتطلع إليهما وكانت
أختي الصغيرة تلعب بتلك العروسة التي تحدثت عنها الفتاة الملوثة
الذراعين بالروث.. وكانت الصالة وبلاطها يلمع وكأنه غسل لتوه..
وأختي تستمع بملمس البلاط الرطب البارد.. ورأني أبي ولم يبد عليه
تعبير ما. ناولني بلا مبالاه.. حبة كمثرى كبيرة ناضجة.. كالشهد.
ولا حظ الدموع في عيني فصال.

- ولد.. من ضربك؟!

وهزرت رأسى أنفي ذلك..

- إيه الحكاية؟!

ولم أرد.. بل قنافت حبة الكمثرى في بطء ولم أنطق، فأي كلمة
سوف تسلمني لبكاء مرير.. وقال أبي:

- كلها.. ياللا كلها كلها.. ههـ

لكنى تأملتها قليلاً ثم وضعتها في جيبى.. وصال أبي:

- لماذا لا تأكلها يا ولد؟

حملقت مدة طويلة فيه، وهو يمضغ حبة أخرى ويزعق في، وفجأة
قبل أن ينطق كلمة أخرى، كنت قد انطلقت مهرولاً أنزل السلم، سمعت
صياحة الغاضب يطاردنى حتى الشارع..

انبثقت الفكرة في ذهني.. كالبرق أضاءت داخلي.. غسلتني بتيار

من الراحة وشعرت أن كل أحزاني لا مبرر لها وانطلقت وأنا أقفر،
شعرت بابتسمة تزاحم بقايا الدموع في عيني.. حتى وصلت إلى باب
(دار جبر) مرة أخرى.. فتوقفت وأنا ألهث تحسست جنبي.. كانت حبة
الكمثرى ترقد هناك آمنة.. تطلعت إلى داخل الحوش.. كان كل شيء
كما توقعت.. لا أحد هناك.. (حميدة) وابنتها على السطح..
والجاموسية تلوك الطعام. ذكر البطة منهمما في صيد الذباب.. لكن
صوت العجوز كان يعلو، حاداً مشروحاً في قاعة الفرن.. يلعن ويسب
الأولاد الجاحدين والأيام والزمان القاسي. دخلت متسللاً في حذر،
يدي فوق جنبي تحسس الحبة كمن يتتأكد من وجود سلاحه معه.
وصلت إلى القاعة دفعت الباب في حذر، فإن أنياناً مفجعاً.. سكتت
العجوز فجأة.. نظرت إلى الداخل. كانت القاعة غارقة في الظلام، بل
كانت الظلام نفسه. قطعة لانهائية من ليل بلا قمر، تنفس بصعوبة
من خلال أنف العجوز. أحسست أنفاسها تتشمم الهواء لتتعرف على
من فتح الباب، صرخت في حدة..

- من؟

سمعت صوت لعابي وأنا ابتلعه، وقلت:

- أنا.

- من أنت؟

- أنا (صلاح)، ابن (عبدة أفندي).. أخو الأستاذ (سالم)، اللي كنا
هنا..

لم يبد عليها أنها تعرفت على أي اسم من الثلاثة فقالت في شك..

- ماذا تريده؟

ثم أطبقت يدها العظمية على ذراعي بشدة، كدت أصرخ من الرعب.
ـ أنا.. أنا.. أحضرت لك شيئاً.. أحضرت لك كمثرى، حبة كمثرى.

وأضفت بحزن حقيقي:

- كنت تطلبين تفاحاً.. ولكن لم أجده سوى كمثرى.. لا يوجد تفاح,
خذلي..

وارتحت أصابعها وتحسستني برفق..

- إن شاء الله تعيش..

مددت يدي بحرص شديد، وأخرجت الثمرة، وأنا خائف أن تسقط فتفرق في بحر الظلام.. عثرت على كفها الممدود كالكلابات وأعطيتها الثمرة.. سمعتها تششق بصوت مسموع وهي تتسممها بأنفاس محرومة كلها شوق وشهوة!

كانت عيني قد اعتادت على الظلام قليلاً فرأيتها تنحني على الثمرة كأنها فريسة ورأيتها تستند بظهرها إلى الجدار وتهبط لتجلس كأنها تسيل عليه.. حاولت كثيراً أن تدخل الثمرة في ذلك الشق الذي كان فيما.. وأخذت تدیرها. أكثر من مرة.. لعلها تصيبها في مقتل، دون جدوی.

كنت أتابعها باهفة وأنا أدعوان تفلاح. كانت أنفاسي تلاحق أنفاسها، أحسست بخيبة أملها تغمرني بالعرق البارد. حين انتهت المعركة جلست يائسة هامدة. مدلت ذراعها نحو ي على طوله في يأس.. ناولتني الثمرة وهي تهمس بصوت مخذل كاد أن يقتلني..

- خد.. لا أقدر.. لم أستطع.. أسنانى وقعت من زمن بعيد.. لم يبق لي أسنان. ريحتها حلوة. كل التفاح ريحته حلوة. كنت نفسي أذوقه قبل ما أموت لكن خذها أنت.. يا..

ولم أسمع بقية حديثها، وجدتني أخذ الثمرة في صمت.. دفعت الباب.. خنقتنى الدموع التي احتبس فى حلقي، انطلقت أجري. أجري تطاردى صورة شبح العجوز الأسود تحاول يائسة عاجزة أن تفترس الثمرة الشهية دون جدوی! «تأخرت كثيراً لم يعد هناك أسنان». الكلمات ترن في أذني.. سمعت أحدهم ينادي على. لكنى لم أرد. ولم أكف عن الجري إلا خارج القرية صرت بعيداً أمامي مباشرة كان مقام (سيدي مجاهد) أبيض ناصعاً.. تملاً جدرانه البيضاء كتاباتنا وأوراقنا المليئة بالكلام عن الجمعية. وبكل ما أملك من قوة قذفت الثمرة وأنا أصرخ! اصطدمت الثمرة بالجدار وانفجرت فوقه.. تناشرت وقتاً ساقطت أشلاءها على الأرض الرطبة المغبرة بينما انطبعت على الجدار الأبيض بقعة كبيرة مشوهة كدماء باهتة..!

• حافظت (رقيبه) أيمانات المسلمين وبرحمة اللي ماقوا لها - إن الشيخ شاف (عزرايل) قد امها عيني عينك وانها من كتر النور اللي شعل حواليه لمحته بعينيها اللي حيا كلهم الدود . الاست اضافت مؤكدة وقد غيرت رأيها في هذه التخريفة :

- كان نور الملائكة يابس يا هبة الأنبياء والأولياء همه بس اللي مكتوب
لهم ينظروه.

فاستدركت بسرعة مؤمنة على كلام ستها:

ـ ملکین واحد شمال والثانی یمین، واللی (نبا النبی نبی) لما شفته
ما فزعـت. روحی ساخت منی لکن هو فز علی حیله وطمئنی. قال لی
یابت یا (رتیبه) ما تخافیش دول مش جایین لکی. ویصیت لقیت علی
وشه طفح نور الـهـی.. خلاه ابیا ایاض لکن شخـطـهـ فـیـهـ وـحـذـرـنـیـ انـ
أـجـیـبـ سـیرـةـ.. جـیـتـ أـصـرـخـ، الـسـتـ شـخـطـتـ فـیـهـ شـخـطـهـ خـرـسـتـنـیـ وـعـلـیـ
ماـ مـاـ چـیـتـ أـقـولـ لـهـاـ کـانـ السـرـ الـإـلـهـیـ طـلـعـ.

مرة أخرى أمنت أنت على كلامها وهي ترقيها وتكبر وتطبطب
عليها في حنان وتحذر الموجدين من إفشاء السر في حق عليهم غضب
الله يشلهم على طول أو يخرسهم ويعود عليهم في أولادهم لسابع جيل
والعياذ بالله. أو يخطفهم قرود.

كانت قد أوحت (لأشنقيطي) أنها تستأمنه على أسرارها وتخصه
بشقه خاصة تخطي بها أهلها وأولادها.. ولم تقدر ساعتها أنها تحبي
عنه أحلاما قديمة محرمه كيتها لسنوات منذ وضع قدميه لأول مرة
في بيت الشيخ حين وكانت جالسة على راحتها ذات هرة وأتيحت له
فرصة ان يشاهد مالا تبصره عيون الأغراب. لكنه كتم ما أثارته به
لمساتها ليده وهمساتها له ولم يسمح لنفسه بتجاوز حدوده رغم خبرته
بعلامات الضعف النسوبي، كتم فزعته وقال خاشعا انه خادم التراب
الذى تمشي عليه وأسرع فاستدعي لها من س茅هم له. ومعهم (رجب)

البنا و(معاطي) التريي ليقوموا بتجهيز المقبرة وإعادة بنائها بسرعة لتليق بالمرحوم (شيخ وسيد الميتين ولی الله الصالح) الذي كشف عنه الحجاب وشاهد (عزرايل) رؤى العين والذي تجسد لرعاية روحه ساعة طلوعها (ملكي الحساب) وتجلى له برهان ربه قبل ان يموت، أملة وبينة لا تحدث الا تأكيداً لمعجزة.

بعثت (نعميمة العامية) تدور في بيوت البلد، التي اعتادت ألا تغلق أبوابها يوماً في وجهها، تقرأ القرآن لتطرد من توزه نفسه من الشياطين أن يفسد خرجة الشيخ، هامسة تؤكّد رواية (رتيبة).. والكل يعرفون أنها الوحيدة التي كشف عنها الحجاب مرات عديدة من قبل، الكل تعودوا صراخها المنذر المحذّر حين ترى (الأبعد) كلما عنَّ له أن يهبط في الليل ليقبض أرواح البنات، خاصة البكر إذا ما قدر على إحداهن الموت.

إنها أيضاً رأته كما عودها من قديم الزمن وان غمضت عليها ملامح شكله وهيئته هذه المرة واريكتها فلم تستطع أن تخمن إسم من قدر عليها الموت غدراً في تلك الليلة السوداء، الصورة المشوّشة لم تسعنها. مما طمس على بصيرتها وأخرس لسانها فعجزت عن الصراخ - كعادتها - منذرة. ربما كان هذا من رحمة الله، أخرسها حتى لا تكذب ولا ماذا كان الناس سيقولون عنها حين ينفذ سهم الله ويموت شيخ جليل وولي من أولياء الله وليس فتاة عذراء.. لذلك خرت ساجدة طول الليل تستغفر للله وتشكره على عجزها ان تفهم حكمته في ذلك وهو علام الغيوب وليس لنا أن نعترض والعياذ بالله.. فما نحن إلا بشر محدودين ومن تراب.. وإلى تراب وسبحانه الذي قدر لهذه القرية الطيب ذكرها ان تحظى بعد صبر طويلاً بولي من أهلها ودمها، عاش وسط جموع الناس يأكل ويشرب مثلهم ويمشي في الأسواق، وكان في حياته لها وبعد مماته راعيها وحاميها.. ولـي كلموه وكلمهم.. عاشروه وعاشرهم وعرفوا أفضائله وليس عنهم بغرير.

(إن هذا لا سمح الله لا يقلل من مكانة سيدى (مجاحد ابو عبد الوهاب) الذي هو حارس القرية وراعيها منذ الفتح وأحد الصالحين الأربعين المرابطين لحماية أمة الإسلام عبر القرون للأبد.. سبحانه جل اسمه وعلا فضله يعطى النعمة لمن يشاء من عباده المخلصين أميين)..
أمن المصاون الذين تجمعوا للصلوة في الجامع الكبير خلف الشيخ (علي) وصدقوا كلامه.. لكن المصليين في (سيدى مجاحد) وراء الشيخ (مسعد الأعمى) شكوا في كلام الفتى (رتيبة) التي سيرها ليس فوق الشبهات ولم يعرف عنها يوما أنها ركعتها مرة في حياتها).

قبيل العصر وصل مرسال مخصوص يحمل رسالة للشيخ (مسعد) من است (هانم) لا أحد يعرف مضمونها جعلته يستغفر الله في درس العصر ويراجع نفسه الامارة بأسوء معتذرا بقلة العلم المقدرة على البشر، واعترف بعجز الإنسان الدائم عن فهم الحكمة الالهية أو معرفة الأسباب، وطويلا تحدث عن حكمة الله، حين يضع سره في أضعف خلقه.. وبعدها حكى أنه حين غفى في الظهيرة غفوته المعتادة وهو ظاهر جاءه هاتف علوى في المنام عرف فيه صوت مولاه وسيده (ابن عبد الوهاب) يعلنه برضاه عنه وعن البلد.. ويحذر من الخوض فيما لا يعلمه وأمره ألا يعترض على الأحكام. ثم بشره أن جنازة سليله وحفيده الشيخ (مقبل) المرضى عليه والمكشوف عنه الحجاب ستخرج من باب مقام (سيدى مجاحد) وتعتبره بناء على أمر (رئيسة الديوان) منعا للفتنة وقطعا للسان الشيطان.

أثبت (الشنقيطي) لنفسه ولها وللجميع أنه قد ها وقد دود. وأنه يستطيع ان ينجز كل ما أوكلته اليه بل وما لم تطلب منه (إشارتك أوامر) وفي نفس طوبل واحد.. كان روح (ولي الله) الجديد تلبسته. صاروا يرونها في اكثر من مكان في نفس الوقت والزمان، عند المقبرة يشرف على اعادة بنائها بالسرعة المطلوبة ويامستوى الالائق، يظهر فجأة في جميع الزرائب التي اقيمت فيها المطابخ وموائد الطهي

وحشدت فيها النسوان لتجهيز الطعام تحت قيادة (محمد محمود الفلسطيني) ليحل المشاكل الطارئه. أو في ساحة الجنرال يقدم المشورة لمن يقيمهن السرادق ويقترح مكان وقوف السيارات ثم عند الاستفجأة تتملىء من حسنها عيونه وتنعم ريحها جوارحه وتجلب سماعه بنبرات صوتها فينطلق وقد تجددت طاقاته، يدور بطلبه معلناً ما تم الاتفاق عليه. صارت خطوطه بعشرة، قامته طالت، هيبيته زادت حتى أخرست العيال الذين طالما تجمهروا حوله يزفونه أو يصرخون عليه ساخرين من عضوه الأسطوري، حتى النسوان اختشوا منه، صرخن يغلقن الأبواب بسرعة حين يهل من بعيد، هو لم ينتبه لكل هذا، فقد كان مسحوراً تحت وطأة انفعالات وهموم أخرى يدرس خرائط أخرى تنبع في رأسه التي كانت مقفلة بحساب (ريالات) كثيرة يتوقع تكومها في حجره خلال هذا المولد الكبير تتيح له صولات وجولات، وتنصره في غزوات محتمله لا تحصى لقلعة زوجته المسحورة التي لا تفتح أبوابها ولا تسلم راياتها إلا على رنات الريالات الفضية.

الآن تزاحم أحلامه المعتادة أوهام بشائر غامضة لفتوح أكبر وغزو أكثر سحراً لقلعة ملكية متفردة، وأشد منعه، إشتبهت عليه وهيأت له أنها على مديده، حشارة همساتها المستضعفه ونظراتها المحرومة وروائحها السحرية المختلفة حتى وان بدت مستحيلة فقد وضعته وهو المدجج المسلاح اسيراً مكبلاً أعزلاً في مرمى الرماح العاتيه المكتسحة في ملقف رياح الاستهانه المستحيلة.

● طوال عام و(ابن الحنفي) يكاد يكون مقيناً في البلد، اعاد صلاته بأصدقائه وزملاء دراسته.. وحضر نفسه في جلسات المقاوي والمصاطب حتى السهرة امام دكان (محمد شطا) وان لم يرحب به، فعلها مرة. ودخل بيوتا دون دعوة وزار مرضى وحضر جنازات يهدد ويغرى ويعد وعداً وخدمات.. أعطاه موت الشیخ (مقبل) فرصته كي يلهم الغلة

ويكنس الجرن ويختتم مهمته فليس أنساب من قناع الحزن لاستغلال
شعور الفقدان والخوف من الغد الذي زلزل ثبات أنصار الشيخ وأعدائه
ـ ستارا لاكمال مهمته الرسمية على أكمل وجه وانجاز ما اعتبره واجبا
(وطنيا) لتطهير (ميت سلسيل) من رجس الشيوعية دون أخطاء
مهنية لينفتح أمامه على وسع باب المستقبل. وزوده الاتفاق على تأجيل
الجنازة إلى صلاة الجمعة بمهلة لم يطلبها تتيح له أن يظهر صدق كل
ما بذله من وعود وتأكيد جدية ما لمح به من تهديدات وتحقيق ما وعد
به من إغراءات (بعضها كان مستحيلا) قبل الدفن ليعرف الجميع أن
كل شيء تحت السيطرة وإن الثورة تستطيع أن تحمي نفسها من
أعدائها وتعاقبهم بشدة، في الوقت الذي تعطي وتغدق على أبنائهما
المخلصين وتكافئهم بسخاء. قرار النقل الذي حفى سنوات لتحقيقه
ابن (الدهمنهوري) من (بنها) إلى (ذكرنس) ليكون مقر عمله أقرب لبيت
عروسه الجديد جاهز على التوقيع..

محضر الحجز الاداري على معامل (شحاته) اثنان لحساب
الضرائب المتأخرة تم تمزيقه واعدامه كأن لم يكن..
شهادة المعاملة النهائية (لابن الحسانين) جاءته من التل الكبير مع
عسكري مخصوص بعد مكالمة تليفونية ولم يعد مطلوبا ولا هاريا من
الجنديه.

محضر التبديد الذي كان يهدد بحبس الأربعة من كبار عائلات
(حبيب) و(القشلان) و(مسعد) إختفى وشطبت القضية،
وطلب من (احمد ابو حامد) السفر فورا ليكمل أوراقه ويستخرج
باسبوره كي يسافر في منحة لمدة عام إلى (فرنسا) تحقيقا لأحلام
مراهقته، بعد تعيينه في العلاقات الخارجية بوزارة الزراعة. أما الأستاذ
(زينهم) المحامي الوفدي القديم وعضو لجنة العمال والطلبة أيام ٤٦
فقد تبلغ بإشارة تليفونية - بضرورة أن يكون في القاهرة صباح السبت
للمقابلة الهامة مع رئيس شركة المقاولات العامة ليشغل منصب رئيس
الشئون القانونية.

(فخرى الششتاوي) الذي حفى كي يستجاب للطلب الذي تقدم به

للوزارة من شهور للنقل إلى (عنيبة) بعد أن أحس بالحالة تضيق حول عنقه وبكلاب الصيد تطارده مقتنعاً ان ابعاده إلى آخر بلاد المسلمين هو الحل لكي يحرر نفسه من ضغوط لا يطيقها مقتنعاً أهله وعروسه أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لزيادة مرتبة وتوفير ما يمكنه من التقدم إليها. فوجئ بلا مقدمات بالوزارة تستجيب لطلبه على الفور. بدا ذلك انه الحل الممكن الذي وافق هو (ابن الحنفي) لإبعاده عن البلد وجاءت الموافقة تلغرافياً مما أثار دهشة الكثيرين وأرجعوا على الفور بعض العارفين ببواسطه الأمور إلى بركات (ولي الله الصالح) الذي لابد أنه عفى عن إساءات الطائشين ليؤكد أن باب الرحمة مفتوح دائماً لقبول توبة العاصيin المتطاولين على الله بدون علم. وحدها (نوال) لم تصدق حين لم يعترض أبوها على عودتها مرة أخرى إلى (المنصورة) مؤكداً لها أن (ابن الحنفي) أسر إليه أن حصولها على التصريح مؤكداً هذه المرة فقد سمحوا بزيارة المعتقلين لأسباب إنسانية.

كانت قد استأذنت أمها أن تقوم بعدة زيارات بعد خروج أبيها إلى سهرته المعتادة أمام دكان (محمد شطا) بعد عودتها المرهقة من زيارة (فرج الله). هذه المرة لم تصحب معها أخيها لكي لا تلفت الانظار لرحلتها الخفية التي زودتها بتفاصيل كل هذه الحصيلة من الأخبار والأحداث التي حجرت الدموع في عينيها إشفاقاً وفرعاً من قسوة الضعف الإنساني الذي طالما ألمه أخيها.. ذلك الضعف الذي ينهش الروح بأظافر الحاجة ويدخل النفس البشرية حين تعجز عن بلوغ سدرة الحرية فتسقط تحت وطأة التسلط والضرورة وثقل متطلبات الحياة اليومية.. لكنها ما أن كادت تصل إلى عتبة باب البيت حتى سمعت اسمها يهمس به منادياً عليها (عم توفيق) جارهم وصديق (سالم) العجوز العزيز.. كان زميلاً قد يما طرق بابهم غاضباً ذات يوم عندما عرف أن ثمة مجلات ومطبوعات بعينها توزع في القرية ويقرأها كل (من هب ودب) وهو بالذات لا يعرف عنها شيئاً، مع أن (الجار أولى بالشفعة).. و(جحا) أولى بلحام طوره يا (سالم) ولا جيلكم عايز يلغينا زي ما بيقولوا.. يا (سالم) مهمـا كان احنا لـنا حقوق عليـكم) ..

حاول (سالم) يومها ان يعتذر وينكر لكن المعلم (توفيق) لم يترك له فرصة..

- يا ابني انا عارف، أنا باخرق الأمان.. لكن العمر بيجري وانا مش غريب أنا كنت زميل قديم جندني (محمد السكران) في (الشرقية) أيام الحرب كنت انت لسه بتحبي.. كنت باشتغل في الجيش الإنجليزي، عملنا تاريخ. ما تقاطعنيش واسمعني واسأل..

- وكنت ح اعرف منين يا (عم توفيق)؟ أنا مصدقك لكن في ظروف زي دي ما حدش يكشف نفسه وانا باشكرك على ثقتك لكن احنا يا دوب بنستهجى..

- خلاص يا زميل فاهم قصدك انت بس بلغ زمايلك في المستويات اللي فوق بالموضوع، ثم أن المجالات دي علنية.. إحنا برضه اترينا نحترم الأمان ونعرف يعني ايه انصباط.. بس ما كانش يصح يعني، الشمس توصل بلدنا وما تدقش على شبابيكنا يا حضرة المثقف..

- بس انت برضه يا (عم توفيق) مالكش حق.. عركة، الجمعية داخلينها من سنتين ولا تديناش إماره كنت على الأقل استفدى بخبرتك.

- أنا ياما اتكلمت مع ابن (عبد ربه) لكن هو مش سهل وغويظ وله حق، يعرفني منين؟ هو كل من ضحك لي أقهقه له.. لكن أصل (فاض بيئه).. يا أخي ثم انا ما قصرتش برضه انا كنت وراكم وقد امامكم.. معلهش.. يمكن قلتوا دا عجوز وخلص..

حکى (سالم) ما جرى بينهما وعيناه مغروقةتان بالدموع فالرجل كان يعاتبه وقد تملكته حالة من الشجن والانفعال نسجت بينهما أواصر صداقة بل واحوة طفت بهما فوق نهر من الذكريات والفرح غمر (سالم) بإحساس جارف بالحب مثل هذا الرجل الذي التقطرت عيناه نقطة الضوء الشحيح فغمرت قلبه بدفء حب إنساني يتسع لكل البشر في أيام كانت مصر تتلمس فيها دريا للخروج من ديار جير الظلمة والقهر على وهج ما انفجر في سماءاتها من شرارات الحرب العالمية الثانية.. تلك الحرب التي أحرقت وقتلت وهدمت وخربت ولكنها أيضاً

اشعلت في حواري الضعفاء والفقراء شموسا صغيرة تبشر بأمل لا حدود له.

دار كل ذلك بخاطرها؟.. عجيب أمر هذا الإنسان كيف يستطيع استدعاء كل ذلك وبكل هذا التفصيل والتكييف والوضوح رغم هذه الظلمة.. أو ربما بسببها؟

وقفت (نوال) تتأمل طيف (عم توفيق) المترنح وهو يقطع الأمتار القليلة بينهما متلمساً موقع قدمه في الطين المتخلّف عن المطر وسط الظلام بصعوبة. سأل عليها ولما أخبروه أنها في زيارة بعض الأقارب ظل واقفاً في انتظار عودتها حتى تصلت عضلات ساقيه من البرد والرطوبة أمام بيته. تحامل على نفسه بسرعة وقفز حين رأها منادياً نداء من يحذره أن يلفت أنظار أحد.. إمساك بيدها في الظلام وهو يصافحها.. وفوجئت به يدس في كفها لفافة صغيرة من ورق دقيق هامساً:

خشى على طول.. الورق ده وصل من مده لعيلة زميل لنا من (دكنس)، وأنا ليه مع أخوه الكبير مصالح وباقابله كثير. هو عطاهولي من مدة وكنت خافيه.. لكن قلت.. اسلمه لكي تقريره ولو أمكن توصليه أو توصلني به خمونه (سلام) أو لغيره كويس مع السلامه.. تصبحي على خير.

إختفى (عم توفيق) فجأة كما ظهر..

وقفت (نوال) تهدئ نبضات قلبها وأنفاسها وهي تتبع شبحه في الظلام المتكاثف بصعوبه فلم تتبين إن كان قد عاد لبيته أم واصل طريقه ولو لا اللفة التي في يدها لظننت ما حدث وهما وأن من لمسها كان شبحاً. دفعت الباب ودخلت وقد تملكتها رعشة حب استطلاع مرعب. صعدت السلم قفزاً كأنما تطاردها وتسلل على جلدتها هبة ريح جليدية باردة.

فرزعت أمها وهي تراها ترتعش وظننت أن اصابتها حمى.. إيه اللي انت بتعملية ده.. حد يخرج في النوه دي وبالهدوم دي.. يا شيخه ارحمينا وارحمي نفسك.

(نوال) لم ترد ان تجادل حتى لا ينعكس جدالهما او ينقلب شجاراً
يفسد خططها لاسفر في الغد..
- معاهاش يا ماما.. غصب عنى.. ياه انا بردانة.. قوي لكن ديتها لما
اكمش في السرير ح اتدفى وابقى تمام.. هاتي لي المندى لو كان والع في
الاودة والنبي واعملني لي شاي. بسرعة يا ماما. يا ماما..
كانت تقبض على لفافة الأوراق بشدة فتحس لمسها لسعة بحة
نار.

• ما أن كمشت (نوال) تحت اللحاف بعد أن علقت اللمة (نمرة ١٠)
على مسمار أعلى المخدة ورفعت الضوء إلى الدرجة التي لا يهيب الالهب
زجاج اللمة.. مدت يدها بحرص وأخرجت تلك اللفة الصغيرة الغريبة
من الورق.. التي لولها حقيقة بين أصابعها لظننت لقاءها (بعم
توفيق) حلماً أو نوعاً من الهاوس، بعد المسافة الطويلة التي قطعتها
في اللف على بعض الدور، عبر الأزقة والحواري الزلقة المظلمة..
متجنبة الشوارع التي توجد فيها دكاكين ساهرة أو قهاوي.. وهي تكابد
ريحا باردة سئلة تجمد العروق.

تأملت لفة الأوراق الصغيرة، وما أن بدأت تفردها في حرس حتى
سمعت دقا على الباب فأسرعت تخفيها وتفرك كفيها طلب للدفء
وللستر، وواجهت أمها بابتسامه مرتبكة.. لتجنب نظرتها المؤنة
المستربية..

- هو انتي زي اخوكي مش ح ترحمي نفسك، إيه اللي أخرك
لدلوقتي؟.. هو انت مش رايحة له بكرة.
- ماهو عشان رايحة له.. كان لازم أعرف أخبار البلد إيه. وقلت أفوت
على (عزة) بالمرة مش ح يسألني.. والا ح نتكلم في إيه؟

- طب يا اختي.. كلام في شقائق.. دفي نفسك ونامي وانا ح اعمل
لنك الأكل.. ح احمر له ديك واعمل شوية مكرونة.. الأكل الناشف
يستحمل وأضمن.. ح ابعت اختك (سناء) تجيب قرصين جبنه ضاني
من عند هرات (زكي).

فتساءلت متظاهرة بالمرح لتداري ارتباها :

- الزروطي ١٩..

- يا بت عيب دا في مقام عملك.. عما الدبب.. نامي.. نامت عليك..
والا بلاش..

- يا ماما باضحك معاكي، مش قادره اشكرك ازاي.. دانا ميطة م
التعب.

مدت أنها يدها لتأخذ اللمة فصاحت بها :

- لا.. أنا مش ح أنام على طول.. خدي اللمة الثانية أنا مولعاها
ومعمرها تمام. سببي لي دي..

- ليه بقى يا اختي سابت بطنك.. حتذاكري للأنسانس..

- ما فيش حاجة بعيدة عن رينا.. قولى انشا الله.

- طب يا فالحة.. نامي وأطمئني.. أنا ح أعمل الأكل.. وبكره
أصحيك بدري.. بس ما تنسيش تطفي اللمة والا توطيها.. عشان
أخواتك..

خرجت أخيرا فتهدت (نوال) وأحكمت غلق الباب وراء أنها..
وأسرعت فأخرجت (اللفة).. وفرتها في حرص..

كانت مجموعة غريبة من الأوراق المكرمشة التي تقاد تهترئ
وتذوب.. شريط من كراسة مدرسية قديمة.. وظهر ورقة علبة سجائر
داخلية مدهوكة، وأربع ورقات بفرة رقيقة تقاد تتمزق.. وكلها مكتوب
عليها بأقلام مختلفة ولكن بخط دقيق واضح ومقروء إلا في بعض
أماكن ابهتها عرق أو ماء.. أو تثنيات عشوائية قاسية.. ولكنها ما أن
استغرقت في القراءة حتى انتزعها وقع الجملة الأولى عن كل ما
حولها :

- لطلع النهار في الأوردي مواقف مختلفة.. أنه يبدأ رسمياً في السابعة صباحاً، عندما يفتح باب العنبر ويندفع الشاويش صارخاً (دولي). وتبداً رحلة العذاب مع التفتيش.. أما بالنسبة للكثيرين فهو يبدأ قبل ذلك بكثير.. البعض ينتبه مع تلك الأصوات الخامضة التي تبدأ بنداء (ضابط كبير) انتبااه.. ومن بعيد تصاحبها أصوات هرولة وخطوات عسكرية.. يبدأ (الأسير) في تقدير حجمها.. ونوعها.. لأنه على ذلك تتوقف كمية ومقدار العذاب اليومي.. ثم تفتح أبواب المعتقل الرئيسية.. ولكن الكثيرين يكونون متيقظين مع أولى تباشير الفجر يعانون من الجوع الرهيب، حيث أن معظم المعتقلين يأكلون كل جرایتهم وطعامهم لحظة توزيعه في ظهرة اليوم السابق، ويظلون على لحم بطنهم حتى ظهر اليوم التالي، الذي استيقظوا مرغمين في انتظاره قبل الفجر بكثير.. ومعهم يكون متيقظاً آخرون يعانون من كوابيس علقة الأمس وما يتراكمة الألم والإهانة على نفوسهم من فزعات تقطع النوم وتمزق أمانه.. ولكن الحركة والنشاط تكون قد بدأت قبل الموعد الرسمي، وقبل صرخة الشاويش بكثير، إذ على السبعين معتقل المكسين في المتنبران ينتهيوا قبل ذلك من كل ما يصاحب بدايات النهار من طقوس ومهماً.. يتکاسون في آخر العنبر على مرحاضين بدائيين كل منهما عبارة عن حفرة في الأرض ويدون ماء غالباً وبدون مناشف أو صابون أو أي مادة من مواد (الرفاهية) الضرورية لبشر يبدأون نهارهم. عليهم جميعاً أن يقضوا حاجاتهم الطبيعية علينا ولا سواتر. وأن يشطروا وجوههم مع كل ما يترقب على هذا من مشاكل، خاصة لأولئك الذين تعودوا على بعض عادات المدنية في بيوتهم.. حيث يكون قضاء الحاجة من أشد الأمور خصوصية، فما بذلك بهولاء الذين عندهم من الأمراض أو المتابע في الجلوس أو القرفة.. منهم الدكتور (لويس عوض) مثلاً والذي يضطر لقضاء حاجته واقفاً مباعداً ما بين ساقيه العاريتين حتى وسطه وركبتيه العصبيتين على

الانثناء، مضطراً للإرتجاع إلى الأمام مستنداً على أي زميل أو على الحائط..

وينهمك الجميع بعد ذلك في غسل القروان وكنس العنبر وطي البرش والبطانية بطريقة معينة. بينما يكون البعض الذين استطاعوا الاحتفاظ بكسرة من الخبز أو بلحسة عسل أو قطعة جبنه مغفنة، أخفوها في طرف البطانية.. لكي يتبعوا بها في الصباح ويفيروا ريقهم الذي سينشف بعد قليل تحت ضربات الشوم وجريد النخل.

هذا الهرج، المرح الصباحي يتم في أقل ضجة ممكنه وبأكثر سرعة مستطاعة. لأن عدم اتمام كل ذلك قبل الصيحة اليومية (دوغرى - للتختيش) يكون البديل لها علاقة جماعية لا رحمة فيها ولا شفقة يفطر بها الجميع، ولا يعني الضرب ضرورة اتمام كل ذلك أيضاً تحت وابل الضربات العشوائية الهمجية..

إن الانهماك في اتمام هذه الطقوس في تلك الظروف الضيقة الصعبة، لتجنب علاقـة يمكن الاستغنـاء عنها لا يغني عمـا ينشـب مخـالبة من قلق وتوجـس في قلـوب الجـمـيع، وهم يتـصـورـون حـسـبـ الخبرـاتـ السـابـقـةـ ماـ سـيـسـفـرـ عـنـهـ فـتـحـ الـبـابـ.. فـأـصـوـاتـ الـهـرـوـلـةـ وـالـجـرـيـ بينـ العـنـابـرـ، الـتـيـ تـصـارـهـاـ مـئـاتـ الـأـحـذـيـةـ الـعـسـكـرـيـةـ الـعـمـيـاءـ.. وـالـصـيـحـاتـ الـغـامـضـةـ الـتـيـ توـحـيـ بـصـيدـ وـمـطـارـدـةـ ماـ، تـتـمـ لـنـ لـأـ نـعـرـفـهـمـ منـ زـمـلـاءـ الـعـنـابـرـ الـأـخـرـىـ أوـ هـكـذـاـ يـرـيدـونـ الـإـيـحـاءـ لـنـاـ.. صـيـحـاتـ غـضـبـ شـتـائـمـ وـسـخـائـمـ وـأـحـيـانـاـ آـهـاتـ.. وـأـصـوـاتـ تـعـثـرـ.. وـاسـتـهـاـضـ عـنـيفـ ثـمـ تـكـتـكـاتـ بـنـادـقـ.. وـرـنـاتـ دـقـ فـوـقـ صـفـائـحـ.. وـهـمـهـمـاتـ، وـزـئـيرـ مـتـقـطـعـ.. صـوتـ سـنـابـكـ خـيلـ تـرـمـحـ.. لـأـحـدـ يـدـرـيـ مـاـ الـذـيـ يـجـريـ.. وـلـكـنـهـ يـكـونـ كـفـيـلاـ بـإـثـارـةـ كـلـ مشـاعـرـ الـخـوفـ وـالـرـعـبـ.. تـمـهـيـداـ لـصـيـحـةـ الشـاوـيـشـ.. دـوـغـرـىـ..

ليقف كل واحد أمام (نمرته) المطوية بعناية، وفوقها القروانة مسؤولة، ووجهه للحائط. ويندفع عدد كثيف من خفر الليل وحراس النهار والسجانة.. وخافهم الصول ثم الضابط المسؤول عن العنبر وكل مسلح بشومة أو عصا خشبية من شجر صلب أو من جريد النخل أو

بحزامه الميري المدجج بالنحاس - إن لم يجد .. لينها الجمیع على
الجمیع بشكل عشوائی همجی لا یفرق ولا یمیز ولا ییری ..
وإذا ما كان المأمور في صحبتهم، وكثیراً ما یحدث هذا - يكون
الضرب مضاعفاً وأكثر قسوة .. وتصبح حملة التفتیش هذه بعد أن
تطورت من التفتیش مع الضرب إلى التفتیش مع إثارة الفوضى في
كل شيء .. ثم التفتیش الذاتي مع خلع الطاقية .. وفتح الفم ثم
التفتيش مع الأنحناء على الحائط ليكون الظهر والرأس والقفا
جاهزاً للصك والضرب بالشوم والقوایش .. مع ما في ذلك الإنحناء من
إهانة . بعدها اللف والدوران السريع المتصل . كل ذلك والضرب هو
الشيء الوحید الذي لا يتغير ولا يتوقف مع السب المھین والبذئ للام
والأب ونسفیل الجدود .. وقبل أن نتعود على هذه التعاليم وتصاعد ها
المتطور لتصبح روتينا يومياً محفوظاً كان على الصول (مطاوع) أن
يدرینا . فكل شيء هنا لابد من اتقانه .

في البداية أصطب مجموعة من أرزل السجابة والحراس ليعلمنا
أساليب الاستجابة للنداءات . وينذرنا أن من يخطئ فيها أو يهمل أو
يتباطأ فسوف ينال حظاً من العطایا أكثر من زملائه على العروسة .
أمرنا بالوقوف ووجوهنا للحائط .. لينها العساكر المنتشرون خلف
ظهورنا صكاً وركلاً بالأکف والعصى والأرجل .. لتعديل وقفة هذا أو
إطراء وقفة ذلك ..

- اسمع كلام حضرة الصول يا ابن الكلب ..

ويشير (مطاوع) فيتوقف الضرب ويصبح :

- لما أقول تفك الحزام تفك حزام بنطلونك فوراً وترکع بعد أن ترکز
جسمك على كعبك اليمين .. ولما أقول لف للتفتیش تلف وانت راكع
بسرعة البرق ..

ثم أشار للفرقة فعاودت الضرب وهي تصحيح لنا كيف تطبق
تعليماته ..

ذات يوم استمر أحد السجانه في ضرب الشاعر (فؤاد حداد) رغم
أمر الشاويش (عطية) بالتوقف .. وظل الشاعر يحاول تجنب الضرب

دون جدوى إلى أن صاح :

- إيه .. مش قال لك كفاية .. هو أنت بتضرب لحسابك ؟.

وانفجر الجميع ضاحكين ولم يعجب هذا الجلادين فانهالوا دون أمر، يضربون الكل لحسابهم.

وتصادمت الرؤوس وداخل الكثيرون من اللف .. وارتدى البعض على الأرض وسقطت السراويل وانكشفت العورات لتثير ضحكات سخرية صاحبة وتطلق قهقهات وتعليقات بذئنة وجارحة من المأمور وضباطه .. وكثيراً ما يعجب المأمور بالمشهد المركب الذي يقفه عاديون بعضهم أساتذة جامعة وشعراء ومفكرون ونقابيون كثيراً ما أثاروه بما لديهم من ثقافة وقدرة على النقاش لم يكن يحتملها - فيطلب من (مطاوع) إعادة التمرين مرة أخرى بحماس أكبر .. وهمه أشد :

- علشان يتعلموا حاجة أولاد القحبة الجهلة دول ..

ويتصاعد الضرب وتتضاعف معدلاته حتى يقول (مطاوع) ..

- انتبه قف ..

لا يعني ذلك انتهاء هذه الفترة الصباحية من العذاب وإنما هي بداية لا أقل ..

إذ يختار الظابط واحداً أو أكثر بأى حجة مفتعلة، ليضرب علىعروسة بالكرياج أو ليعلق في الفاكه أمام الآخرين، فإن صرخ وتألم زيدت له جرعة الضرب أما إذا تحمل ولم يصرخ فسرعان ما يعيده حتى لا يصبح قدوة لزملائه ..

بعد حفلة التفتيس الصباحية، يخرجوننا إلى فناء السجن بين صفين من حراس الليل وعسكر النهار ليطاردوننا بالشوم والسيور والقحوف. ثم يوقف الجميع بعد ذلك في الطابور كل شاويش مع أسراه أمام عنبره، ليبدأ الهتاف للجمهورية العربية (المتحدة) كما كان (مطاوع) ينطقها ..

لم يعترض أحد على الهتاف للجمهورية.. ولكن المشكلة ثارت عندما طلب الهتاف (لعبد الناصر) وترديد نشيد (الله أكبر).. نحن المؤيدون (لعبد الناصر) لم نجد (للأسف) تناقضًا بين ما يحدث وبين

الهتاف وان ثار بعضنا على ذلك متحججين باعتبار الإجبار في حد ذاته اهانة.

الدكتور (إسماعيل صبري) رفض الهتاف.. فجرؤوه سحلا وانهالوا عليه ضربا ثم جلدوه على العروسة.. وانقسم رأي زملائه.. بين من يؤيدون الـهـتـافـ ومن يـرـفـضـونـ.. والبعض اقترح أن يتمتموا فقط بينما اقترح البعض أن يـهـتـفـ الذين يـقـفـونـ في الصـفـوفـ الأولىـ، ويـمـتـنـعـ الآخرونـ ولكنـ هـذـاـ أـثـارـ بـلـبـلـةـ فـظـيـعـةـ.. ثـمـ تـرـكـواـ الأـمـرـ لـتـصـرـفـ الأـفـرـادـ وـكـانـ هـذـاـ يـعـكـسـ بـالـضـبـطـ مـوـقـفـ الـقـيـادـاتـ الـتـيـ لمـ تـسـطـعـ أـنـ تـصـلـ إـلـىـ قـرـارـ حـاسـمـ بـالـرـفـضـ.. وـهـوـ أـمـرـ سـمـحـ لـإـدـارـةـ الـمـعـتـقـلـ بـالـتـمـادـيـ وـزـيـادـةـ جـرـعةـ التـعـذـيبـ وـالـإـهـانـةـ يـوـمـ بـعـدـ يـوـمـ مـعـ مـاـ خـلـفـهـ هـذـاـ مـنـ انـخـفـاضـ للـروحـ الـمـعـنـوـيـةـ بـشـكـلـ كـبـيرـ.

ويـنـماـ كـانـ بـعـضـنـاـ يـحـمـلـ (عبدـ النـاصـرـ)ـ وـزـرـكـلـ ذـلـكـ كـانـ بـعـضـ يـصـرـ عـلـىـ أـنـهـ لـاـ يـعـرـفـ شـيـئـاـ عـمـاـ يـحـدـثـ.. وـإـنـ هـذـاـ مـنـ تـدـبـيرـ تـلـكـ الـعـصـابـةـ الـتـيـ تـحـكـمـ أـجـهـزةـ أـمـنـ الـدـوـلـةـ.. بـلـ وـيـحـصـرـوـنـهـمـ فـيـ الـلـوـاءـ (حسنـ مـصـيـلـحـيـ)ـ وـالـلـوـاءـ (إـسـمـاعـيلـ هـمـتـ)ـ وـالـرـائـدـ (حسـنـ منـيـرـ)ـ وـالـرـائـدـ (عبدـ اللـطـيفـ رـشـديـ)ـ وـالـنـقـيـبـ (مرـجـانـ أـسـحـاقـ)ـ.. وـالـمـلـازـمـ أـوـلـ (يونـسـ مرـعـيـ)ـ وـالـسـيـدـ (منـصـورـ)ـ حـتـىـ الصـوـلـ (مـطـاوـعـ)ـ بـلـ وـالـعـساـكـرـ وـمـنـهـمـ (عبدـ السـلـامـ المـتـرـيسـ)ـ وـ(عبدـ الصـادـقـ الـمـجـنـونـ)ـ وـالـشـاوـيـشـ (عبدـ الـحـلـيمـ عـوـكـلـ)ـ وـالـأـمـبـاشـيـ (عبدـ اللـطـيفـ)ـ وـ(حسـنـ عـلـيـوـهـ)ـ وـ(عـابـدـ عـبـدـ اللهـ)ـ وـ(أـبـوـ الـوـفـاـ دـنـجـلـ)ـ وـالـعـسـكـرـيـ (دـوـمـةـ)ـ. وـهـيـ أـسـمـاءـ يـجـبـ أـنـ تـعـيـهاـ ذـاكـرـتـنـاـ إـلـىـ أـنـ تـنـالـ الـعـقـابـ.

ولـكـنـ هـؤـلـاءـ لـمـ يـهـبـطـواـ مـنـ السـمـاءـ أـنـهـمـ جـزـءـ مـنـ آـلـةـ الـنـظـامـ الجـهـنـمـيـةـ. وـمـاـ هـمـ إـلـاـ درـاعـ الـحـكـومـةـ الضـارـبـ وـلـاـ يـعـقـلـ أـلـاـ يـكـونـواـ يـنـفـذـونـ أـوـاـمـرـ عـلـيـاـ.. كـمـاـ أـعـتـرـفـ بـعـضـهـمـ وـأـنـاـ رـأـيـيـ (وـأـحـاسـبـ عـلـيـهـ)ـ أـنـهـ حـتـىـ لـوـكـانـ (عبدـ النـاصـرـ)ـ لـاـ يـعـرـفـ فـهـوـ مـسـئـولـ. وـمـسـئـولـيـتـنـاـ أـكـبـرـ لـأـنـنـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ كـانـ يـجـبـ أـنـ نـقاـوـمـ وـنـرـفـضـ، كـانـتـ الـحـجـةـ أـنـ الـضـحـاـيـاـ سـيـكـونـوـنـ كـثـيـرـيـنـ. وـنـحـنـ أـمـامـ مـؤـامـرـةـ لـلـتـصـفـيـةـ وـيـنـبـغـيـ تـفـوـيـتـهـاـ عـلـيـهـمـ.. وـرـأـيـيـ أـنـ هـذـاـ خـطـأـ فـادـحـ. إـذـ لـاـ بـدـ مـنـ فـضـحـ الـمـارـسـاتـ الـتـيـ

أتوقع لها ضحايا أكثر بكثير من ضحايا المواجهة، بل ستكون الضحية هي فكرة الصمود والنضال ذاتها.. ولذا أتمنى أن يعرف ما يجري أكبر عدد ممكن من الناس، بل وليصل الأمر إذا استطعتم إلى (عبد الناصر) نفسه. فإن كان لا يدرى فإنها مصيبة ويكون واجبنا أن ننبه لما يحدث. قبل أن يستفحـل الأمر، خاصة وأن الأمور تزداد (سوءاً يوماً بعد يوم) ويتردد أنهم ينـوون إخراجنا) لتكسير الحجر في الجبل كالمـحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.. وأعتقد أن هذه ستكون كارثة.. أشد هولاً..

انتهت (نوال) من قراءة الورقـات ودموعها تسيل دون توقف.. وانتابـتها حالة من التشنج والآلم المـبرح كـادت معـه أن تصـرخ بـعلـو صـوتها. ولكنـها استطاعت أن تتمـاسـك، مـحاولةً ألا تصدقـ أنـ هذاـ شيءـ حـقـيقـي.. وـأنـهـ يـمـكـنـ أنـ يـحـدـثـ إـذـ كـيـفـ يـمـكـنـ أنـ تـصـلـ الـأـمـورـ إـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ مـنـ الـقـسـوةـ وـالـوـحـشـيـةـ. وـلـمـ تـجـرـؤـ عـلـىـ إـتـهـامـ (عبدـ النـاصـرـ)ـ أـنـهـ يـعـرـفـ بـهـذـاـ فـأـعـدـاءـ الثـورـةـ عـادـةـ مـاـ يـكـوـنـونـ مـنـ أـشـدـ الـمـظـاهـرـينـ بـالـدـافـاعـ عـنـهـ!ـ وـهـؤـلـاءـ الزـيـانـيـةـ يـرـيدـونـ إـثـبـاتـ إـخـلـاـصـهـمـ بـتـعـذـيبـ مـاـ أـقـنـعـوهـمـ بـهـ،ـ أـنـ الشـيـوـعـيـينـ هـمـ أـلـدـ أـعـدـاءـ الثـورـةـ!ـ..

أـحسـتـ أنهاـ عـاجـزـهـ عـنـ التـفـكـيرـ السـلـيمـ وـأنـهاـ تـشوـشتـ. وـدارـ بـخـلـدـهاـ أـنـ الخـدـمـةـ الـتـيـ يـقـولـ (عاطـفـ)ـ أـنـ قـدـمـهـاـ لـهـمـ بـمـنـعـ تـرـحـيلـ (سـالـمـ)ـ إـلـىـ الـمعـتـقلـ.ـ تـصـبـحـ بـهـذـاـ الشـكـلـ خـدـمـةـ كـبـيرـةـ فـعـلـاـ..ـ هـذـاـ إـنـ صـدقــ وـتـحـيرـتـ مـاـذـاـ تـفـعـلـ بـهـذـهـ الـأـورـاقـ..ـ الـآنـ..ـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـأـخـذـهـاـ مـعـهـاـ إـلـىـ السـجـنـ.ـ خـاصـةـ وـأـنـهـ مـازـالـ أـمـامـهـاـ مـشـوارـ الـحـصـولـ عـلـىـ أـذـنـ الـنـيـابـةـ.ـ هـلـ يـمـكـنـ أـنـ تـضـمـنـ أـلـاـ يـحـدـثـ شـيـءـ مـاـ فـتـقـعـ هـذـهـ الـأـورـاقـ فـيـ يـدـ الـنـيـابـةـ،ـ أـوـ فـيـ يـدـ أـحـدـ مـنـ الـسـجـانـةـ أـثـنـاءـ تـفـتـيـشـ الدـخـولـ..ـ لـمـ تـتـعـرـضـ لـمـثـلـ هـذـهـ الـتـجـرـيـةـ مـنـ قـبـلـ..ـ فـإـذـاـ كـانـتـ قـدـ قـرـرـتـ عـدـمـ أـخـذـ الـقـصـةـ الـتـيـ كـتـبـهـاـ أـخـوـهـاـ حـتـىـ لـاـ تـصـبـحـ دـلـيـلـاـ ضـدـ (سـالـمـ)،ـ فـمـاـ بـالـهـاـ وـهـذـهـ الـأـورـاقـ خـارـجـةـ مـنـ الـمـعـتـقلـ..ـ كـيـفـ سـتـبـرـ وـصـولـهـاـ إـلـيـهـاـ.ـ إـنـهـ دـلـيـلـ قـضـيـةـ كـامـلـةـ.ـ وـأـخـيـراـ قـرـرـتـ الـأـحـتـفـاظـ بـالـأـورـاقـ وـتـأـمـيـنـهـاـ،ـ حـتـىـ تـسـأـلـ (سـالـمـ)..ـ هـوـ وـحـدهـ الـذـيـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـقـرـرـ الرـأـيـ الصـائـبـ..

وينما هي تعيد ترتيب ولف الأوراق.. وجدت بينها ورقة مختلفة مكتوبة بخط مغایر، لم تنتبه إليها في البداية.. ووجدت مكتوبًا على طرفها أنها قصيدة للشاعر (فؤاد حداد).. وكانت قد سمعت به من أخيها وقرأت له (أحرار وراء القضبان) وقصيدة طويلة اسمها (الشهيد الإيراني) وأيضاً (موال عشان القنال) بل وساهمت في توزيعه.. وتعجبت كيف يمكن لـإنسان ما، أو لحكومة أياً كانت جاهليتها ورجعيتها أن تسجن مثل هذا الإنسان الرقيق الجميل، الذي رأته لمرة واحدة يوم ذهب إلى القاهرة، وأخذها أخوها لرابطة الأدب الحديث حيث كان سيلقى بعض أشعاره..

تناولت الورقة بتقديس وحب.. وفردت لها بحنان وأخذت تقرأ بعد أن مسحت دموعها وهي تهمس لنفسها مشجعة. أنهم رغم كل هذا.. يكتبون الشعر..

مش عايز الفجر يطلع مش عايزه يطلع يا عالم
دا كل ما الفجر يطلع.. أنا.. أنا البنى آدم..
بيضريوني في أبويا.. ويبيضريوني في أمري
مطرح ما باسمي أبويا، مطرح ما باستني أمري
والضرب زى الشتيمة.. على حشاكى الألئيمه
كان ليه تشيلنى حشاك وترضعنى عشاك
ليه تندهى لي باسمى.. بينهد والى بنمرة
مكتوبة فوق الطاقية والبرش والبطانية
كان ليه يامى بنقرا.. كان ليه أروح المدارس
واعلم الأبجدية.. ليه الكتب والفالهارس
والامتحان والعيديه
كان ليه يا أمري أمارس.. مبدأ من الإنسانية..
قوئي لا بوا اللي غارس.. اكثرا من العلم فيه
(عبد اللطيف رشدي) وارث.. ابنك في جملة عبده
(عبد اللطيف رشدي) سيده

(عبد اللطيف رشدي) فارس

راكب حصان الحكومة.. راسم على وشه بومة

تمشي وراه الكوارث.. وتمشي قدامه شومة

.....

.....

يا راسم للجبل صورة

أنا قاعد عيني مكسورة

فيه شرخ شارخ في قلبي

فيه شرخ شوه الصورة..

اتسع الشرخ في قلبها فأجهشت في بكاء مرير.. خافت أن يسمعها أحد.. دفنت رأسها تحت المخدة إلى أن أجهدها البكاء.. فنامت.

• عندما نزلت (نوال) في محطة (المنصورة) عرض عليها الأسطوان (عبدة) أن يوصلها إلى المحكمة، لكنها رفضت شاكراً قائلة أن المسافة لا تستحق، أكد عليها أن تكون في المحطة في الثالثة أو في الثالثة والنصف عند السجن إذا ما وفقها رينا وزارت (قول إنشاء الله).. كانت مفعمة بالأمل ليست وحدها هذه المرة.. تاقت لرؤيه (أم نباها) ابتسمت وهي تتذكر (الفص) و(نباهات) همست لنفسها، الدنيا بخير.. ورينا استجاب لدعوات أمها، أن يوقف لها أولاد الحلال. أمها الطيبة التي أوصتها أن تذهب ببيت خالها لو واجهتها أي مشكلة، مؤكدة لها متفاخرة أنه يعرف في (المنصورة) من يذلون لها أية صعوبة بإذن الله. كانت متأكدة من ذلك ولكنها مثل (سالم) لم تكن تريد أن تزيد متاعبه، بجر رجله إلى منطقة مشاكلهم السياسية الخطيرة.. كان أخوها يقول: تكفيه مشاكلة مع فساد (الأحرار) الذين تولوا إدارة

الشركة التي يعمل بها بعد تأميمها. ومتاعبها الأكبر بسبب حالة زوجته التي يموت طفلها الثالث كلما جاء ذكرها بعد أن رزقت بنتين وتكررت معها الحالة كاللعنة ثلاثة مرات متتالية مما حول حياتهم إلى جحيم، جربوا لعلاجها كل الوصفات الطبية العلمية والسحرية والخرافية وكافة النصائح المؤمنة والعاصية دون فائدة..

- كل واحد فيه اللي مكفيه.. ح أروح له أزود همه على إيه؟
وصلت المختلط بسرعة. لم تحس معها بالوقت ولا ثقل السبت.
كانت تسير على مهل، عندها وقت كاف قبل أن يبدأ العمل في المحكمة..
(صار عندك خبرة).. أبتسمت لذلك وهي تدور حول الناصية الأخيرة
لشارع المحكمة، حيث فوجئت بمن تنادي عليها من حنطور واقف بجوار الرصيف كالمترис:

- بس.. بست ست (نوال).. ست (نوال).
هي.. (نباهات)، تمد رأسها من الحنطور وقد اكتسى وجهها جدية لا
تناسب ملامحه الصريحة ولا نظرة عينها المكحولة:

- تعالى.. تعالى اركبي.. بسرعة.. بسرعة..
لم تفهم لكنها أطاعت، ناولتها السبت. وقبل أن تحصل على إجابة
شافية لسؤالها عن الحكاية. كان الحنطور قد انطلق بها في الاتجاه
المضاد للمحكمة..

- فيه إيه يا (نباهات). إيه الحكاية؟ واخداني على فين.. التصريح؟
اسكتي.. ح أفهمك، بس يا رب يكون اللي ينشك في قلبه ما
شافكيش!.

- مين هو اللي ينشك في قلبه ده؟.. فهميني..
ح أفهمك.. وأنا بقى لي ساعة وأنا هنا في الحنطور.. أصل المباحث
قايمة على رجل.. (عطيه) المخبر مرابط قدام باب النيابة في
إنتظارك..

- ليه بقى؟ عشان إيه؟ دأنا عرفت إن كان من حقي إني أزور سلك
من غير تصريح.. (إبراهيم أبو رخا) فهمني إن اللي تحت التحقيق من
حقه يزور سلك كل أسبوع.

- ياست (نوال) بلا (ابورخا بلا أبو مخا).. احنا في اللي حصل..
أهي امبراح زارت أبويا في السجن.
- امتى؟..

- بالليل.. ما هو احنا بنزور بطريقتنا، بعد التمام. ما علينا.. ح
تعرفني كل حاجة.. المهم انها طول الليل ما نامتش. تصدقني كانت ح
تسافر لك البلد عشان ما تتعبيش نفسك وتحجي. لكن ازاي.. ما
علينا.. روقي ودلوقتي (أم نباتات) ح تحكي لك كل حاجة.. صدقيني..

التصریح ..!۶

ـ ما قلت لك ح تفهمك..

كان حديثها صريحاً وملامحها توحى بالثقة والتعاطف.. لكن
خيطاً رفيعاً من الشك عقد نفسه حول لسانها فلم تجد ما تقوله.
تكاثف قلق مشوب بالخوف أثقل قلبها وسقط به في قدميها، فعجزت
عن الحركة. جلست مستسامة والحنطور يسابق المارة، وكرياج الأسطى
يفرقع في الجو في رتابة وحزن وسرعة. واختلطت صور الطريق
المتسارعة إلى الخلف مع حركة رأس (نباهات) التي كانت تقوم نصف
قومة بين حين وآخر تتطلع إلى الشارع من خلف العريجي، الذي كان
يلاحق الحصان بفرقعات سوطه المنغمة ليطير وليراكم في عقلها
أفكاراً عديدة، كلها أشد سواداً من بعضها عصرت قلبها وفتتها:

- هل فعلها (مجدي)؟ لابد أنه أبلغ (عاطف الحنفي) بذهابها للنيابة؟.. ولكن ما علاقة ذلك بزيارة (أم نباتات) للسجن؟.. ما الذي حدث (لسا لم)؟..

هل رحلوه للمعتقل؟.. الصول الطيب لم ينف وجوده في السجن و(عم حسن عطيه)الأمير خرج إليها ودلها على التصريح؟.. ماذا حدث؟ لماذا يفعل ذلك لو أخوها مش هناك.. أفاقت من أفكارها القلقة المعتمة على (هيس) طويلاً تلبش الحسان. كادت وقفة الحنطور المفاجئة الحادة أن تنطرها عن الكرسي لكن (نهاهات) سندتها وهي تضحك.

- امسكي نفسك.. متشكرين يا عم (بحبح).. اتفضل انت لقفل
رزقك مع السلامة.. ياللا يا سرت (نوال) (أم نباهاةت) أهي. ماما

حملت السبت بيد بعد أن نزلت قبل (نوال) قافزة في خفه إلى الشارع، وهي تمد يدها الأخرى لتسند (نوال) التي كانت تبحث بقدمها عن سلم الحنطور الهاوية، فانزلقت وكادت تنكفي في اضطرابها القلق لكن (أم نباتات) تلقتها بسرعة في أحضانها:
ـ يا حبة عين أمك. على مهلك.

حنية (أم نباتات) سدت منابع القلق والشك والخوف في قلب (نوال) وأن غيمت عينيها دموع متعددة بخرتها حرارة ابتسامة الثقة التي أشرق بها الوجه الحزين وهو يستسلم لأحساس عميق بالأمان إلى جوار هذه السيدة التي أجلسها إلى جوارها على الرصيف لأول مرة في حياتها دون أن تحس أي حرج!
أمامها كانت البضاعة التي تبعها للتلاميذ صباحاً. أقلام ومساطر وكراسات.. ملبس وكراولة وورق ملون وورق شفاف - عشرات الأصناف المدرسية..

- (نباتات) بسرعة هاتي شوب عصير من عند عمه (عباس).. صاحب، مش مخمر يا بت.. والا تغيري ريقك يا نن عين أمك.. عندنا بيض وجبنه رومي وسميط.. حاجة نضيفه.. التلاميذ دول أعز من ولادي. وخالتك (أم نباتات) أم ونضيفة..

ضحت (نوال) وهي تحاول أن تجد لنفسها مكاناً في عالم هذه المست (الأسطورية) هكذا طرأ الوصف لها وهي تراها في غبشه الفجر تقوم تسق البيض وتلف الجبنة بعد تقسيمها شرائح حتى تأتيها أبنتها بالخبز والسميط الصابح من الفرن..

ثم تسرع إلى هذا المكان لتقضى هذه الفترة حتى يدخل التلاميذ إلى المدرسة، تبيع وتجادل وتصارع وهي تدير مؤسسة (القص) الصباحية (مكتبة ومطعم) وبعدها تسرع لتشرف على الفرع الثاني الأرقى (كافتريا في دورة مياه المحكمة)!

تصنع وتبيع الشاي والقهوة والدمغة وخدمات أخرى كثيرة لا غنى عنها لرواد المحكمة من المحامين والعساكر والموظفين وال فلاحين.. مدعين ومتهمين.. سوابق وعواطلية وعمال.. عالم يدور في طاحونة

مجتمع منقسم ظالم متسلط خاضع لشبك فيه المصالح وتصارع.
وهي ومساعديها من ابنائها وبناتها وابناء أختها تقودهم وتخوض بهم
ناره. تنتزع القروش من بين أسنان تلك الساقية الجهنمية المتشعبه
التر eos والأذرع والنوابض والروافع التي لا تكف عن القضم والهرس
والدفع والطحن والنشر والقطع والوصل والدق مصعدة للسماء آذين
هذا الخليط من الأصوات الزاعقة والهامة الغاضبة والمغيرة..
الصارخة من الألم، الهامة بالنميمة، وهي تلقي بأشلاء من تلقمهم
إلى الشارع أو إلى السجن على طول ذراعها الجبار.

ـ جاية معاكي فين؟ دوا حنا مش حنروح نجيب التصريح!
كانت مستسلمة بتأثير ثقتها في (أم نباتات) لتكشف أنها تأخذها
بعيداً.. كالمونمة لاغية كل ما عداتها:

- والزيارة؟ والتصريح؟

- سيباًك من زيارتهم. أنا أقول لك.. الزيارة أنا ح ادبرها بطريقتي.

- جيبتي التصريح، أكيد
- مافيش تصريح يا ستي الحكاية أصلها اتعقدت.. الواد (الفحص) لما
راح امبارح عشان يجيب (الإيراد) من أبوه آخر النهار، بعد (تمام)
السجن قال له.. لكن أنا ما صدقتوش رحت بنفسي واتأكدت..

- قال له إيه؟.. مين اللي قال ملين؟

اتضحت أبعاد الموقف فانفجرت (نوال) باكية مستحضرة كل صور التعذيب التي تحدثت عنها أوراق الأمس، لكن (أم نباتات) عاتبتها وهي تحيطها بذراعها اللحيم الدافئ وتمسك بمقصوص شعرها المتداول من قمطتها الملونة:

- ح تزوريه.. و حياد دول لحتزوريه وح نغيظهم.. الله.. دانتوبتوع
السياسة.. ح تعطي من أول قلم.. ما ينفعش، أخوك هزا الضابط

كفاية وح ياخذ حقه منه.. احنا بقى ح نرد له القلم قلمين.. وح تزوري
اخوكي! انتي مش لكي تشوفيه وتطمني عليه وتتكلمي له.. وتوصلي له
الزيارة.. ما تجмеди امال..

مسحت (نوال) دموعها وتماسكت قليلا ثم خرج صوتها مرهقا
متسائلة في وهن:

- النهاردة يا خالتى!
عجبتها (خالتى) فضمنتها اليها في امتنان:
- ما ينفعش النهاردة.. بكره.. ساعة صلاة الجمعة هي الساعة
المناسبة.

- وح اعمل ايه أنا؟.. يعني اروح وأجي بكرة!
- لا.. لا.. ح تباثي عندي النهاردة.. في حضني.. الا إذا كنا مش قد
المقام. مش عايزه حد منهم يشوفك.. رايحة جاية.. يقطروكي..
- لكن ده ما ينفعش، دول كانوا يموتوا في البلد من القلق.. ازاي
أبات برة البيت، عمرها ما حصلت..

- يا ستي ح نبعث لهم رسالة مع الأسطر (عبده).. إنك.. أقول لك..
انت مش عندك خال هنا في (المدير)..

- ما أقدرش أروح له وأدخله في الموضوع فجأة كده.. ما أعرفش هو ح
يتصرف ازاي ويمكن يمنعني.

- خلاص تاهت ولقيناشا.. (الأسطر عبده) ح يقول لهم إنك مبيته
عند خالك يطمنهم.. وبعد ما تزوري بكره بإذن واحد أحد.. يبقى
إتحلت.. مدام زرنا والحمد لله.. كله ح يلاقي لك عذر.

- وما ينفعش النهاردة!

- ما ينفعش! الموضوع فيه ترتيبات.. الضابط (ممدوح) مش ح يكون
في السجن بكره: وساعة الصلا هي اللي ح تبقى الفرصة اللي يخرج
(سالم) فيها م التأديب، الضابط (ميخائيل) هو اللي ح يفتح السجن
يوم الجمعة.. و(القص) قال إن دي الفرصة التمام.. هو مرتب كل
حاجة.. انتي بس اوثقى فينا.

- وانتي مش رايحة المحكمة النهاردة..

- مش رايحة، ما فيش محكمة النهاردة..

واضافت ضاحكة لتسري عنها.

- مش عايزه حد يشم ريحه خبر (ح اخد اجازة عارضة) المهم انتي تيجي معايا تستريحى.. وبعد (التمام) حنروح سوا نزور (القص) (زيارة هوا) ونجيب (الايراد) ع الحبل، ونرتب كل حاجة.

الكلمات الجديدة اقتحمت مساحات عدم الفهم التي لم تملأ بعد. فارتقت حواجبها واتسعت عيناهما من الدهشة وعدم الفهم فتبسمت (أم نباتات)..

- يقطعني.. عماليه ارطن وانت عايزه اللي يترجم لك.. لكن لما بعد (التمام) نزور (القص) ح تفهمي كل حاجة.. المهم انك ترتاحي ويا رب مطرحنا يعجبك.

- والأسطى (عبد عواد) مش اروح أقابله وأوصيه..

- انتي مش ح تفارقيني لحظة.. مش عايزاكي تروحي أي حته عشان اللي ما يتسموا ما يشموش خبر.. ويقطعوا علينا ونطلع بلا موطى..

- طب والأكل ده ح يستحمل ليكره.. ما اظن ش..

- يا ستي ما تحمليش هم حاجة.. خالتاك (أم نباتات) بإذن الله لما تحط راسها ف حاجة تدبرها عمرها ما تخيب. كل حاجة ح تترتب ح نحطه ف احسن ثلاثة في الحنة، بس انتي فكيها كده، دانتي ضحكتك حلوة.. أية كده.. النبي تبسم.. ويا ستي ناكله احنا.. (سالم) ح يسامح لو ما سامحتيش انتي فيه.

تهالك (نوال) ضاحكة وهي تقبلها في حب:

- بالهنا والشفا ما يغلاش عليكي يا (خالتى) !!

● صرخت (نشأت هانم) غاضبة :

- هاتوهولي من تحت طقاطيق الأرض .. أنا ح الاقيئها منين والا
منين؟ .. الأولاني وما صدقنا فاق من (الخراة) اللي كان غرقان فيها -
الثاني اللي بنقول ماسك نفسه يروح راحري ياخده غطس .. واقفين
كده ليه؟ روحوا دوروا لي عليه وهاتوه ..

(عزه البكري) التي كانت تحاول ألا يلاحظ وجودها أكثر من اللازم
همست لها في تردد :

- راح (المنصورة) يا ماما؟

- (المنصورة)؟ .. ينيل ايه؟ .. ما كان هناك امبارح ..

- (عاطف الحنفي) بعته ورا (نوال) بنت (عبد القادر) افendi؟ ..

- (نوال)؟ .. هو احنا مش خلصنا من الموال ده؟

- لا.. دا بعته عشان يمنعها من زيارة أخوها ..

- بطلوا ده واسمعو ده .. واحنا مالنا؟ .. ما تزور أخوها والا عنها ما
زارته .. احنا ف ايه والا ايه؟ .. سايب جنازة ابوه وسايبني لايصة .. في
كل حاجة .. هو احنا بنشتغل عند ابن (الحنفي) والله وهيتك انداست
يا شيخ (مقبل) لما ابن (الحنفي) يبعث ابنك مرسال .. هاتوا لي ابن
(عديلة) اما نشوف حكايتهم ايه معانا؟ .. واندهوا لي (الشنقيطي)
حالا ..

وكأنما (الشنقيطي) كان يقف وراء الباب .. قفز في لحظة :

- تحت أمرك يا سرت هانم ..

غرق في ثراء بياضها القشطة الذي تؤطره الملابس السوداء -

لحظة - ثم فوق نفسه :

- كل شيء تمام يا هانم زي ما أمرتي .. ما تعْتليش أي هم لأي

حاجة.. أنا رقبتي دي ..

(وصاک رقبته بعنف) فأفزعها وأدهشها..

- فدا التراب اللي بتخطي عليه.. دانتي خيرك مغرقني.. انت يعني والمرحوم.. كل شىء تمام وح يتم زي ما انتي عايزه..

-أخبار المطبخ والفلسطيني شورتك ايهد و اخبار الجنازة..

الفقهاء ..

- المطابخ كلها شفالة ولا مكنته النور.. جيش.. الفلسطيني وراه
ومعاه جيش.. جيش؟.. جيوش ولا فيالق (روميل).. كل شيء تمام
نسوان ورجاله. كلهم طوع امرئ.. ولا ف (شفرد) نقاوه ونضافه
بالحباية؟.. الرز والفاصولياء واللوبية.. بالحباية.. والبطاطس ع
الفرازة.. وما فيش اي حاجة ناقصة.. طيور وخرفان وجوز عجول ثباني
معترين ما تقوليش - تستأهل الدبح تحت رجليكي.. ولا تشغلي بذلك
ولا يحزنون.

قاطعته بحدة، لتوقف تيار مشاعره الحارة وفيضان كلامه المرتب
الشديد الاتارة.. الذي يطاقه وهو يتمعن في الكلمات بالواحدة!!
ويرسلها مع نظرات عيونه النهمة.

- ما تلکش زياده.. خلينا في المهم، أنا مش عايزة أي غلطه أو تقدير
وخصوصا في الجنائزه.

عاد في جلافة تلقائية يصلك رقبته من الناحية الأخرى فأضحكها هذه المرة..

- یاہ.. جتنک ایہ یا (شندیط) یا واد انت مش حینعدل حائلک ابدا،
هو احنا ف مولڈ.. ده میتم؟

- اخرس.. مش عايزة لت وتطجين.. فهمني عملت ايه في اللي
اتفقنا عليه. هه ؟ مش عايزة شوية أفنديه يطلعولي من تحت الأرض
يتفضلوك فيها.. والعمدة؟ ان كان هوه والا ابن (الحنفي) يتمنظر
عليه..

تكهرب عندما أمسكت ذراعه المفتول بقوة، وجرته بعيداً عن الانظار.
فأطاع كم حكوم بالموت، يطمع في نجاة مستحيلة..

- أنا مش واثقة قوي في (الشيخ مسعد)، ولا الشيخ (علي) نفسه،
اتأكد منهم، وخلی باللک اولاد (الشعاوی) ما يشموش خبر باللی
رتباھ.. القرآن على طول السكة.. وحوالین التریة.. والمقام الثاني يكون
ع الشعراھ وجاهز.. ولک علیه أشیخک خلیفة له تلغوص في الندور
إنشاء الله.

- ح يحصل ويتم كما أنزل - كل شيء مترتب.. أنا قلت لك رقبتي.. لا
تقلقي ولا يحزنون.

لکنها منعته ان يصک نفسه، فترك كفه ترتاح في كفها.

- بلاش هبل وفوق لی.. آدي انت شایف اولادی كل شویه واحد منهم
يقع في (حرارة)، شکل، اللي يعتمد عليهم يبيع أهله..

سمعا هرجا فتباعدوا وأراد ان يستاذن همست له في حزم :

- خلیک اما نشوف الأفندي اللي بيدي الأوامر لأسياده.. لا (مقبل)
ما ماقش يا ابن (عدیله)..

دخل (عاطف الحنفي) محدثا ضجة تليق بمن يشعر أنه مطلوب
ومرهوب، والكل يعمل حسابه. الخزانة في يده تضرب بنطلونه في
عصبية.. كان الطريق يخلو بسرعة أمامه من الواقفين، والجالسين
يقرون عند مروره في احترام وجل، بينما هو كديك رومي وسط الفراخ،
يمضي ضاحكا.. سعيدا.. إلى أن لمح (الشنقيطي) إلى جوارها.. فبلغ
ريقه.. وزغر ثم حكم انفلات مشاعره بخبرة من اتقن كسر أنفها عند
الحاجة :

- تحت أمرک يا مرت خال.. أول المرسال ما..
تعرف مكانتها، وتعرف كيف ومتى تضعه في حجمه المناسب، وعلى
البعد المناسب فقاطعته:

- بعثت (مجدي) (المنصورة) ليه ورا (نوال) يا (عاطف)? واحنا في
الزنقة دي؟ هو بيشتغل عندك من غير علمي؟، ولا الرجال مات ح
تحكم انت عياله بداله؟

اعرضت في غتاتة ابتسامته في دهشة مصطنعة ورفع حاجبيه:
- يا مرت خال انت فهمتي غلط. (مجدي) كان لازم يروح يؤكد على
ترتيبات الأمن. وينط وميعاد النشر ورميمات التشريفة.. قلت له يفوت
على مديرية الأمن.. لترتيبات الجنازة.. كل شيء لازم يكون ع المستوى
اللائق بالمرحوم ومكانته..

- مابعتوش ورا (نواں)؟..
لم يبد اعترافا ولم يهتم.. وابتسم:
- (الشنقيط) اللي قال لك كده؟.. عنده كل حاجة لازم يبقى فيها
نسوان.. وقلت لها ايه كمان يا (الشنقيط)..
لهجة التهديد لم ترق للهانم، ولا (الشنقيط) الذي كان يقف قلقا
يود الانصراف، لكنه انتظر حين بادلته المست هانم النظارات وهي
تقول:

- (الشنقيط) مش فاضي للهيافة دي؟ (الشنقيط) راجل ولو لا هو
كنا غرقنا في شبر مية. هو اللي شايل الهم كله على اكتافه..
اضاف (الشنقيط) بنفس النبرة وقد شجعته شهادتها:
أنا مش متعود اقول حاجة لحد عن حد.. كنت تعبت م القواله
زمان. عن إذنك يا سست هانم.. لازم أعاين البهائم قبل الدبح..
ومضى دون أن يحيى (عاطف الحنفي).. الذي ابتلع تلميحة
وغمزه، وهو يكتم مشاعره بخبرة من تعود على تثبيت قناعه الباسم،
حتى صار طبعا.. تضاحك محاولا التبسيط وإزالة التوتر، ثم رفع
صوته في مرح:

- حاسب لنفسك يا (الشنقيط) من البهائم اوعى يا واد يغلطوا
ويديبحوك.. أنا عارف ابن (العشماوي) ما بيحبكش..
استدار (الشنقيط) وهو يكتم ما تدفق على لسانه من كلام جارح،
وقد التقى إشارته الغامزة لابن (العشماوي) ونظر إليه نظره طويلة
صامتة.. جعلت ابن (الحنفي) يهتز من أعماقه - إذ مزقت نظرة
(الشنقيط) قناعة المسيطر وقتلت ضحكته المماحكة.. فرأى نفسه
ضئلا ضعيفا، مثلما كان بين يدي (الشنقيط) وهو يغسله في الترعة

شططا، فجر أحدى ليالي الصيف قبل أن يدخل كلية البوليس ويصبح ضابطا له شنة ورنة !

• خرج (الشنقيطي) يلعن سنسفيل جدود حضرة الضابط. خفت من غضبه الطريقة التي عاملته بها (الست).. ووجد نفسه يقهقه بصوت عال لفت انتظار بعض المارة، فراح بعضهم يرمي به باستغراب وبعضهم صاح متسائلا.. بتكلم نفسك يا (شنقيطي) اتجنت؟!.. انتبه وشد قامته متمالكا نفسه، وراح يغمز لهم مرحباً مستعيداً ما اكتسبه خلال اليومين الأخيرين من خبرات قيادية مستحيلة.. وجود حاضر وفاعل... لكن أسباب ضحكه لم تفارقه، خاصة منظر ذلك (البرص الأبيض) - الذي أصبح ضابطا يأمر وينهي، ويلقي بأولاد الناس وراء الشمس ناسياً منظره، وهو يشطفه في الترعة من خراه.

ليلة سودة كانوا فيها عائدين من التل الكبير. من القرעה. أيامها كان (الشنقيطي) مستخدماً يعمال تلفون باليومية عند العمدة - حين كلفه باصطحاب دفعه تشمل عدداً من شبان البلد المطلوبين للكشف الطبي - أول طلب - للقرعة، كانوا خليطاً من الطلبة والفالحين والعاطلين وأصحاب المهن والحرفيين، وفرح طبعاً للمهمة آملاً أن يخرج منها بريال أو اثنين ينفعوا في الليالي السوداء القادمة.. خاصة وأن من بينهم بعض أبناء العائلات الغنية التي لا تبخل على ابنائها، في مثل تلك الظروف.. راجع بنفسه الكشف الذي بلغ للتلفون بإشارة من مندوب التجنيد بالمركز.. كان من بينهم (حضره الضابط) طبعاً قبل أن يصبح ضابطا، كان تلميذاً خائباً سقط دون زملائه من أبناء البلد سنتين في الثقافة.. وكان فيهم (سالم) وابن (همام) و(محفوظ) ابن (زينه) السماكة وابن (حضره) وتلاتة من (أولاد النملة).. لكن دون الخلق جميراً وصاه العمد بطريقة متشددة أن

يأخذ باله من (المحروس) (عاطف) ابن (عديلة هانم) - بنت أخته العبيطة. والا يتركه من يده او يرفع عنه عينه للحظة . لم يعر الأمر أهمية ساعتها . فهو سيأخذ باله كما يجب من كل عهده . لكنه مصمص شفتيه في أسى عندما تذكر يومها حين عاد من المكاتب، بعد أن تم الكشف الطبي على الولاد .. فوجد اشتباكاً حاداً بينهم وبين بعض مجندى المعسكر، وظنه خلافاً على حسابات البو فيه . لكن تبين انهم تراهنوا على السخرية من أبناء (ميتسيلسل) باعتبارهم كما يطلق عليهم أهل الكفر (غنم أبيض) . فأقدم شاويش منهم مستخدماً هيبة الأوامر العسكرية يريد تسخير الدفعـة في كنس الحوش وتنظيفه من الزبالة . دون أن يكون مكلفاً بهم ولا هم ملزمون بذلك العمل .. لأنهم لم يكونوا ملحقين بقوة المعـسـكـر أصلـاً .. فقد تم الكشف عليهم فقط وتبين أن اللائقين منهم غير مطلوبـين في هذه الدفعـة الآن . وسيبقـون تحت الطلب لحين يصـيبـهم الدور .. وما اعتـرضـ (سالم) وحرض زملـاءـه على عدم تنـفيـذـ الأمر اـتـرـزـزـ الشـاـوـشـ وـصـرـخـ يـهـدـدـ الجميع بـلـسانـهـ وـعـصـاهـ .. فـوجـئـ بـتـصـديـ (سالم) لـهـ بـصـلـابـةـ فـاهـتـزـ موقفـهـ . أمـامـ مـعـرـفـتـهـ بـحـقـيـقـةـ مـوـقـفـهـ فـاضـطـرـ لـلـتـرـاجـعـ أـمـامـ اـصـرـارـ (سالم) عـلـىـ أـنـ يـصـحـبـهـ لـلـقـائـدـ صـارـخـاـ :

- دورـنيـ مـكـتـبـ منـ فـضـلـكـ ، لأنـ مشـ منـ حـقـاكـ تـشـتـمـناـ وـلـاـ تـهـيـنـاـ
إـحـنـاـ مـصـرـيـنـ . وجـايـنـ لـخـدـمـةـ الـوـطـنـ .. مشـ لـخـدـمـتـكـ ..

وـوـجـدـ الشـاـوـيـشـ نـفـسـهـ فيـ مـوـقـفـ صـعـبـ ، حينـ رـأـهـ يـلـتـفـونـ حـولـهـ
مـهـدـيـنـ طـالـبـيـنـ الـذـهـابـ إـلـىـ الـمـكـتـبـ وـهـوـ الـذـيـ كـانـ يـرـاهـنـ زـمـلـاءـهـ عـلـىـ
الـسـخـرـيـةـ مـنـهـمـ باـعـتـارـهـمـ (ـكـارـكـيـةـ) .. كـعـادـةـ قـدـامـيـ المـجـنـدـيـنـ فـيـ قـهـرـ
الـمـسـتـجـدـيـنـ .. فـسـارـعـ يـلـمـ الـمـوـضـوـعـ ضـاحـكاـ وـهـوـ يـقـولـ .

- لـأـ .. رـجـالـةـ يـاـ اـوـلـادـ (ـمـيـتـ سـلـسـلـ)ـ أـنـاـ كـنـتـ بـاـجـسـكـمـ . عـلـىـ فـكـرـهـ
إـحـنـاـ قـرـايـبـ وـنـسـايـبـ .. دـأـنـاـ مـنـ (ـكـفـرـ الجـدـيدـ) ..

وارتفـعتـ الرـوـحـ الـمـعـنـوـيـةـ لـلـأـوـلـادـ بـعـدـ يـوـمـيـنـ طـوـالـ فـيـ غـرـيـةـ وـعـذـابـ
قـضـوـهـاـ فـيـ الـمـعـسـكـ بلاـ نـومـ وـلـاـ رـاحـةـ .. إـنـهـمـ لـمـ يـعـبـرـواـ بـعـدـ بـوـاـبـةـ
الـجـنـدـيـةـ وـمـازـالـوـ (ـمـلـكـيـةـ)ـ وـفـيـ حـتـهـ مـقـطـوـعـةـ مـسـؤـلـيـنـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ

الأكل والشرب والنوم..

لذا لما عاد (الشقيق) ووجدهم في هذه الحالة من الغضب،
والاستفار استخار. وقال:

- كويس جت منكم. يبقى نروح دلوقتي.. مش حنبات.. فنيتو..
مرواح.. كفاية لغاية كده.

- لكن الوقت متاخر. والمواصلات؟ مامعناش فلوس..
كان الذي يعترض - قوله عين، دلوعة حاله العمدية ناسيأ أنه السبب
الأساسي في إصرار (الشقيق) على عدم القيادات.

- أنا خلصت الورق. وأنت بالذات ما تتكلمش، والا ح أقول للعمدة
على كل حاجة.. مش حنبات يعني مش حنبات.. ح نروح.. نبات في
بيوتنا.. لحد كده وكفايانى منكم ومنك بالذات..
من أين يضمن الا تتكرر (فضيحة) الأمس والتي لم يدر بها - ستر
رينا - إلا (سالم) الذي نصحه ان يداري الأمر وينسى ويعلم الموضوع..
واهو كل واحد رايح لحاله..

(الواد ده من يومه مفوضوح في وسط أصحابه.. ومتش أول مره
يركبوه.. هو أنت كنت ح تاخده ف حضنك، عشان العمدية وصايك وقال
لك ما تشيلش عينك من عليه، وتبقى مسئول عنه) ١٩
ثم ضحك مداعباً ساخراً :

ثم إن لو كنت أنت بالذات خدته في حضنك، ماحدش عارف ايه
اللي كان حيحصل، كانت تبقى جريمة قتل. أحمد رينا إنك ما
اتورطتش فيه، خصوصا انه كان ممكن يدفع لك هو ريال فضة..
لم يغصب لتلميح (سالم) الساخر.. ولم يجد ما يقوله الا..

- أعوذ بالله - لا.. داحنا نضاف قوي يا أستاذ (سالم) مش وش
ذلك.. يخص مالناش في النجاسة ولا يحزنون.

صمت مفكراً.. ثم صرخ قائلاً.. يبقى العمدية اكيد كان عارف وعشان
كده قعد يوصيني عليه. وانا أقول اشمعنى هو؟ عشان حاله يعني؟..
والله لولا الحوجة يا أخي يا (سالم) ما كنت.. أنت عارف أن أنا وفدي
أصيل. وما ليش أني اقعد في مندورة الزفت العمدية يوم واحد.. إنما

الحوجة تحكم وللضرورة أحكام.. ياللا يا ابني أنت وهو اللي معاه
فلوس يطلعها بلاش نتانية، عشان نروح. اللي عايز بيات ح أسيبه ويبيقى
مسئول عن نفسه، يروح بكره على حساب الحكومة بالاستماره. لكن
يمضي لي هنا أو يبضم عشان أخلي مسئوليتي..

- طبعاً شخطت فيه. لم نفسه ولا يمها.. قلت له يخرس والاح
افضحه.. حاول يعطيوني اثنين جنيه بحالهم.. قلت له وفر فلوسك
وادفع أجرتك زي غيرك.. طبعاً اللي زي ده ما تأمنلوش، ح يروح يقول
للعمدة إني خدت فلوسه.. وأنا لا أخذت.. ولا يحزنون.

قادهم (الشنقيط) جريا، بعد ان أقتنع الجميع بضرورة المرواح.
ولحقوا قطار (الزقازيق) بالعاافية.. نفعت الاستماره مع الكماري وإن
أقنعهم (الشنقيط) أنه دفع له (نص جنيه) ليتركهم حتى (الزقازيق)
وحين وصلوا (الزقازيق) وجدوا الموقف خالي من الركاب وما فيش أي
مواصلة.. الأتوبيس شطب بعد آخر واحد (للمنصورة) ما مشي..
وعربات النفر لم تعد تضمن ركاب عودة من (المنصورة) فباتوا في
الموقف.. وبكي الواد ابن (زينة) لأنه خاف من المبيت في الموقف.. فشدوا
السلخ عليه، لكن (الشنقيط) طمأنه انه ح بيات في حضن أمه.

جمع (سالم) ما أتيح من نقود بعد أن أقنع من يخفونها باظهارها..
وكاد يرفض مساهمة (عاطف) حين قدم إليه جنيه بقنزحة لا تليق
بالوضع الذي كان فيه مفضولاً بالأمس.. لكن الضرورة أجبرته على
قبول الجنيه، خاصة وقد غمز له (الشنقيط) أن يأخذ الجنية (أحل
من عينه). أمام الرعب الذي أصاب (حلمي) الذي لم يغادر القرية أبداً
وذعر ابن (قططة) ان يهاجمهم بطجيئية الموقف الذين كانوا يحومون
في تريص حولهم.. بل وحاول أحدهم أن يغرى (ابن خضرة) بلاعب
الكتشينه على رهان..

أخيراً وقفوا عربية مهكمة وافق سواقها على نقلهم إلى (المنصورة)
أمام إغراء جنيهين كاملين.. قال (حلمي) عنها هاماً:
- دي كلها ما تجيش باثنين جنيه.. اكيد الرجال ده عارف إنها مش ح

ترجع تاني.. ده اذا وصلتنا..

- طب اذا وصلنا ح تعمل ايه في (المنصورة).. ح تمشي للبلد..

- يا اخي تف من بقك.. حنلاقي اللي يوصلنا اشاء الله..

- ما تخافوش.. أنا أضمن بياتكم في (المنصورة) لو مالقيناش طريقة..

قالها بعنجهية المحروس (عاطف)، لكن (الشنقيط) شخط فيهم وقال:

- كل واحد يحط لسانه في بقه ويسيب الرجاله تتصرف..

ثم نادى الذين تناثروا في الموقف بصوت حازم..

- ماحدش يتفلسف.. قلت لكم ح اوصلكم بييتكم يعني ح اوصلكم..
ولا تخافوا ولا يحزنون..

ضحك (سالم) وقال لهم..

- ما دام معانا (الشنقيط) ماحدش يخاف.. ده لو حكمت ح يشيلنا على ضهره لحد البلد ح يوصلنا.. ياللا.. كله يركب ويتكل على الله.
كانوا أكثر من عشرين شاباً خلاف (الشنقيط) ربهم السوق حشرا
في العربية القديمة التي بدت أرحب وأصلب من الداخل.. بينما
تشعبط أكثر من ستة أو سبعة على ضهر العربية وقال لهم السائق :

- الزيادة ح ينزلوا قبل ما نحصل نقط المرور.. ويحصلونا بعدها..
أيوه الشرط كده.. فلو سكم ما تسدش مخالفه..

- هو المرور حاسبها عليك عربية برضه زي البنـي آدمين ١٩

- دي أجدع عربية على الخط..

ضحكوا كلهم للنكتة..

- يا عم سوق، مش نضمن تمشي الأول..

- ما تخافش.. بس يا رب ما يخلينا نشياها في المطبات..
واستمرت التعليقات الضاحكة حتى تغير المزاج العام. وكان السائق
مرحاً وعجزاً تفاخر لتسليتهم..

- اتنيلوا.. دي عربية من الخاصة الملكية.. دانتوا راكبين في الصالون
اللي كان بيركبـه (فاروق).. وبناته في (انشاص).. بصوا.. ح تلقوـا مكان

الرصاص اللي اتضرب عليه.. آه عشان تصدقوا.. دي العربية اللي كان حيموت فيها، مش أي كلام.

- يا دي النصيبة.. يبقى مكتوب لنا موته ملوكي..

وعلت قعقة العربية. وأخذت تقفز وتشهد وتزمر وتشعر، والسائل العجوز يحتضن المقوود بصدره وقد مد رأسه ليلاصق وجهه بالزجاج، حتى يتبين معالم الطريق التي لم يستطع النور الباht لفوانيسه القديمة أن يؤكد معالمه بعد أن غابت الشمس..

- وصلنا (المنصورة) بعد العشا بزمان.. ما فيش اوتوبوسيات طبعاً، لكن الموقف كان فيه شوية عربيات.. لقاها السواقين فرصة يبيعوا ويشردوا علينا.. أنا فكرت أن أخذهم ع العريخانة اللي في شارع السوق.. أنا عارف صاحبتها.. وحضرته هو الوحيد اللي ما صدق.. فقال مسروعاً.. أيوه ونخش السيماء.. أنا مستعد أني.. وصرخت فيه.. كرامه لك، مش بآيتين.. إحنا ح نروح.. الله.. ويبقى عملنا إيه؟.. ما كنا بيتنا هناك ورجعنا براحتنا ما هي المصيبة لو حصل هنا.. زي هناك.. ح تبقى فضيحتنا بجلاجل..

المهم قعدنا أنا و(سالم) وشوية من الطلبة على قهوة كده بعد ما رضيت (الفلاح) على الرصيف وبيعت لهم شاي.. شوية ولقيتاك (سالم) شابك في قافية مع شوية أفنديه ومدورين الضحك وكأنه يعرفهم من زمان.. المهم كان فيهم سواق عربية نص نقل بصندوق خشب وافق يوصلنا.. وطلع انه كان بيوصل نقلة دخان وراجع (المنزلة).. جمع له (سالم) جنيه ونص بالعافية وسي (عاطف) أفندي رفض يدفع، وقال أصله أكل بالفلوس اللي معاه كرشة وبدنجان من ولية كانت بتقلي طعمية للسواقين في حارة قريبة من الموقف.. وحلف بحياة أمه أنه فلا.. طبعاً كان بيكتب زي عادته.. لكن المهم ريك سهلها من غيره.. وركينا.. وعاديك ع اللي حصل.. يا دوب سيبنا (طناح) بحبتين.. والأفندي بتاع البدنجان سخسخ مننا.. قبلها الريحة كانت فاحت في العربية.. صندوق مقول بقى.. وكلنا محشورين حشر حتى جنب السوق كنت أنا و(سالم) و(فرج همام) قاعدين على بعض.. صرخوا

العيال م القرف وصاحبنا سايب من فوق ومن تحت.. وكإنه باكبورت
الجامع الكبير أيام الجفاف..

السوق زرجن وحلف ليرميه م العربية.. وحلف بالطلاق لازم نغسل له العربية.. ولما شبّكنا معاه صمم ينزلنا كلنا.. طبعاً كان أخذ الفلوس.. فـ قعدنا نحايله.. و(سالم) فضل مرّة يهدّد ومرّة يستعطفه.. لدرجة وقف قدام العربية وحلف ما ح يمشي السوق إلا على جتنّته ووقف معاه خمسة ستة.. الحق السوق خاف كنا ف حتة مقطوعة وضلمة.. واحنا كتار.. لكن أصرّ على أن الصندوق يتتضّف.. وطلع الفلوس وهو يكاد يبكي وقال خدوا فلوسكم.. أنا غلطان اللي ركبّت فيها بلاوي زيكم،.. دي فيها قطع عيشي يا جدعان.

تقدّم (الشقيق) من الصندوق وهمس للخائفين الذين رفضوا النزول من العربية رغم الرائحة والقرف ألا يتحركوا.. ثم أفسح المكان حول (المحروس).. وشاله من تحت باطه بهدومه بلكاً ليكه ومضى به إلى شاطئ الترعة وسُع لنفسه طريقاً وسط الغاب والهيش وشجيرات البرنوف بصعوبة، إلى أن أستطاع أن يثبت قدميه موضعاً في الطين الزلق ثم اسند نفسه لفرع شجرة صفصاف ممتداً فوق الماء المدوم تحته، كانت الترعة في دور الري على ما ييدو مما صعب عليه أن يتحرك نحو خط المياه أكثر من ذلك.. أعطاه فرع الصفصاف فرصة أن يعلو الماء، وهو يمسكه من قفاه بقوه.. وعندما وجد الفرصة غطسه على طول ذراعه في مجرى الماء.. و(عاطف) يصرخ ألا وخوفاً.. لكنها كانت الطريقة الوحيدة لتنظيفه. طريش صاحبنا في الماء ولما غطسه حتى رأسه صرخ.. لكن (الشقيق) شخط فيه محذراً أن سيتركه إن لم يكتم النفس.. وأمره أن يخلع ثيابه الملوث تحت الماء وأن يشطفه لكن (عاطف) عجز عن ذلك.. ومع إصرار (الشقيق) أخذ يحاول نزع اللباس وهو يهبس بذراعيه مقاوِماً تيار الماء حتى أستطاع خلعه.. لكنه أفلته فراح مع التيار مما جعله يصرخ باكيأً..

(الشقيق) هاجمته كرية ضحى لفت أنظار الآخرين. واستغروا حين اختلطت الصرخات الباكية بالضحكات الهisterية، فجاء بعضهم